الفلاحون يصعدون الى السماء

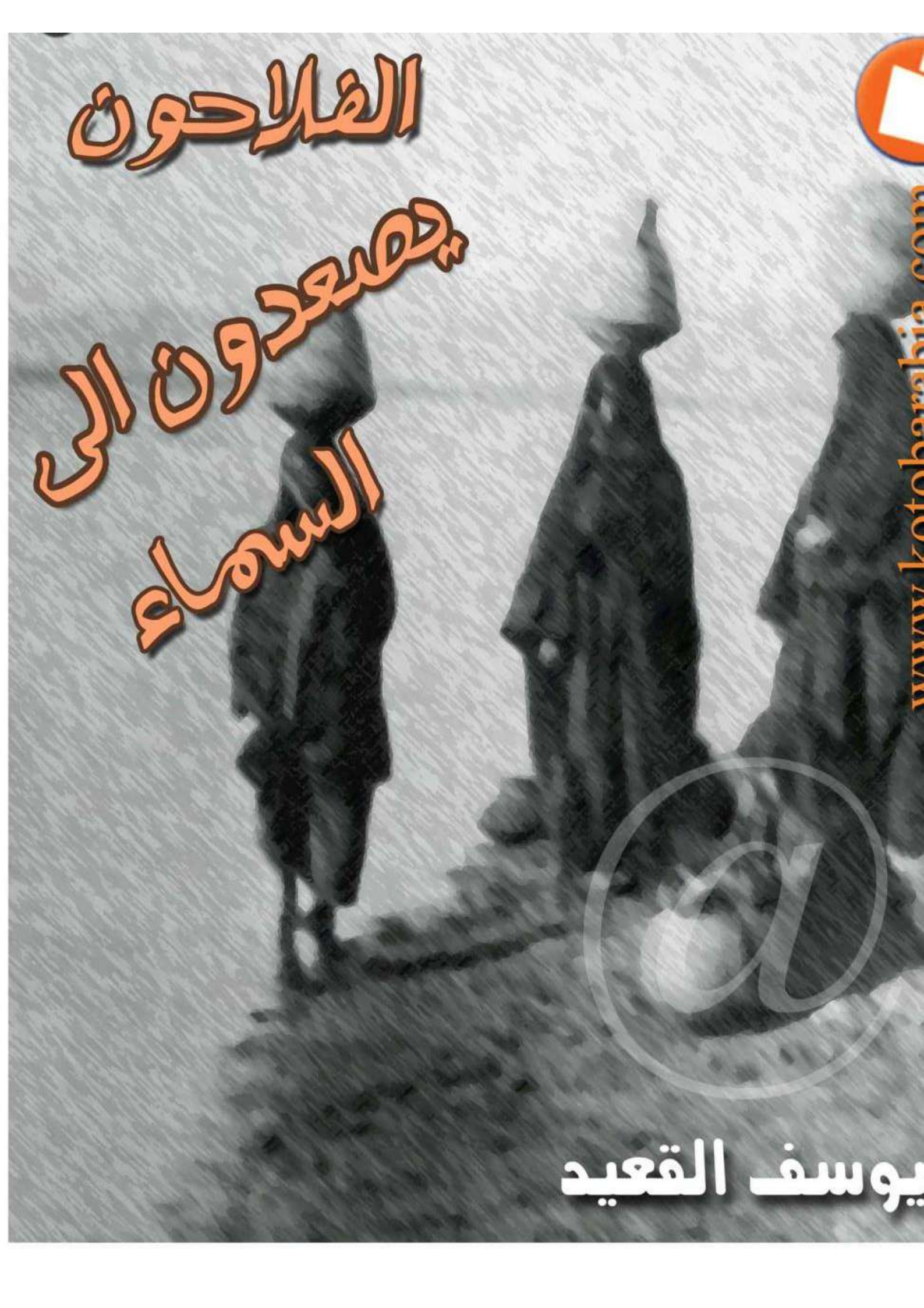

www.kotobarabia.com

يوسف القعيد

الفهرس

- **الفلاحون يصعدون إلى السماء والفضاء الدلالي ٣**
  - رائحة الليل: ٢٢
  - الليل الأول: ٣٢
  - الليل الثاني: ٥٢
  - الليل الثالث: ١٣
  - مناجاة القلب الحزين.................................. ٧٣
- " ١ " ٧٣
- " ٢ " ١٤
- " ٣ " ٤٤
- " ٤ " ٨٤
- الشتاء يأتي إلى الضهرية ٤٥
- " ١ " ٤٥
  - أيام العجوزة: ٠٦
  - أيام الراعي ٤٦
  - أيام الماعز: ٩٦
- " ٢ " ٤٧
- **قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلًا ٧٧**
  - العودة من الحقل..................................... ٥٠١
  - باب المدينة... ٧٠١
  - الْبَلَدْ... ٤١١
  - صهد الشراقي.. ٤٢١
  - المؤتمر الصحفي الأخير للفاتنة مبارآة ٢٤١
- **آما تكتب القصص السياسية الرديئة ٠٧١**
  - قراءة الفاتحة... ٠٧١

- في غمضة عين تتحقق الأحلام..... ٧٧١
- الأصوات واحدة. فلماذا تختلف النتائج؟ ٩٧١
- الصبر.. الصبر.. الصبر..... ٧٨١
- الجرس يُدلي بصوته..... ٩٨١
- بيان رقم واحد ٣٩١

- **رحلة الأسطى أحمد وأخته بهيّة ٦٩١**
- الجفاف ١٢٢
- الشونة ٢٣٢

- غلام الطيور ٢٣٢
- الساعة التي تكذب..... ٧٣٢
- أوزني أولًا..... ٣٤٢
- الرغبة في البكاء ٧٤٢
- لن أحني رأسي للوظيفة ٠٥٢
- لا توجد درجة خالية ٢٥٢
- الهموم في الأعالي ٣٥٢

■

الفلاحون يصعدون إلى السماء والفضاء الدلالي

بقلم: د. عبد الرازق عيد

الريف يشكل الفضاء الجغرافي للملفوظ السردي الحكائي في معظم ما أنتجه يوسف القعيد من رواية وقصة. فضاء وهذه المختارات القصصية، التي بين أيدينا، تشكل يهيمن امتدادا في فضاء المكان الريفي وفضاء النص، لتنتج دلاليا تتحد فيه الطريقة، الأسلوب، الذي بواسطته الكاتب على عالمه الحكائي، بما فيه من عوامل وشخوص وأبطال يشكلون واجهة العرض ويتشكلون بها، فيعاد إنتاج الفضاء كمنظور شامل يتخلل علاقات النص في مجموع القصص المختارة في هذا الكتاب.

فالفضاء الدلالي هو الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها من أبعاد ترتبط بالدلالة المجازية، لا على المستوى الأسلوبي، وعلى المستوى البنائي، فعلى المستوى الأسلوبي يهيمن الوصف على ثماني قصص من الاثني عشرة قصة التي تحتويها المجموعة.

فمنذ المقطع الأول في القصة الأولى من المجموعة " رائحة الليل " نبدأه بالجملة السردية الأولى، وقد تحللت إلى عناصر تتصل بمكونات المكان وأشياله:

" ما أن تأتي هذه اللحظة، اللحظة التي يتلون الأفق الغربي فيها بلون الدم، وتطول ظلال الأشياء، وتبهت أشعة الشمس وتتحول إلى لون ذهبي، يتمدد في ليونة على المساحات اللانهائية من خضرة الحقول.. ما أن تأتي هذه اللحظة، حتى يستعد البلد للغوص في بحر من الركود المعتم " ص ١.

فالجملة السردية الأولى يفصلها عن الجملة السردية الثانية مقطع وصفي، وما أن تبدأ الجملة السردية الثانية " يستعد البلد للغوص " حتى تتحلل هذه الوحدة التركيبية إلى وحدة استبدالية على شكل مقطع وصفي: (ترتفع الظلمة من المناطق الغويطة، والأودية، والسهول، تهبط من الساحات الفضائية التي تفصل بين السماء والأرض " لينتقل إلى وحدة سردية جديدة " تقرأ في لحظة الغروب من كل يوم، في عيون الناس هنا، الحنين لشيء غير محدد، الرغبة في العودة

إلى منازلهم، الاستعداد للسفر في الليل، كحكايا المصاطب المستطيلة).

الوصف الذي يستقصي عناصر الفضاء الجغرافي هنا، يتحول إلى منظور شامل يدرج العوامل، والشخصيات في ملفوظه السردي، فتكتسب الجملة السردية وظيفتها الإدماجية التي تحيل إلى مدلول، وليس على فعل، فهي لا تحتاج في إدراك دورها إلى حصول فعل لاحق، فتكتسب الأسلوبية التعبيرية هذا الطابع التشكيلي الذي يشير إلى مدلوله، حيث تبدأ الجملة الأخيرة في نهاية المقطع " في الحقول، الجاموسة والبقرة، ولقد راحت وهي شبه نائمة، تجتر ما أكلته طول النهار "، ص ٢.

فالجملة الأخيرة رغم انطوائها على عنصر سردي، إلا أن هذا العنصر لا يحيل إلى وحدة توزيعية بمقدار ما يحتوي على وحدة إدماجية، والوحدة الإدماجية تتشقق عن طبيعة استبدالية ذات وظيفة دلالية إيمائية، تنتقل بالفضاء الجغرافي من حدوده كمشهد، كخلفية للفعل، إلى عامل تركيبي يساهم في البنية التكوينية للقصة، ويدخل في الوحدة

التوزيعية للعناصر، بوصفه أحد أركانها الأساسية التي ستحدد مآل وسيرورة المتن الحكائي.

إن فرسان الخطاب بين الوصف والسرد، وغلبة الوصف وهيمنته على لسان الراوي الغائب، منح الكلام القصصي نوعا من حيادية الكاميرا التي تصور والريشة التي ترسم، لكنها الحيادية التي لا يتقشر فيها الدال على المدلول بارد أصم من خلال الوحدة الإدماجية ذات الوظيفة الاستبدالية، بل كان الدال يشع بإيحاءات تبعث النبض والحياة في الأشياء حين تختزن اللغة طاقة سحرية وأسطورية قادرة على بث الرائحة في الليل، وانبعاث الرائحة الليلية في الثياب والناس، حيث (أبو الغيط) الحارس الليلي يشم هذه الرائحة في عبد الفتاح أمام المسجد.

فالجملة القصصية الوصفية بمقدار ما تتمتع بحيادية وحيدة العناصر، بمقدار ما تخلع عليها الذات أحاسيسها فتؤنسها، مما يوشي الفضاء بوشاح من الأسى الرومانتيكي الذي يجعل الجملة التي تصوغه تختلج بشعرية الحياة.

لكن رومانتيكية الليل هنا ليست للبوح والمناجاة وسفر الأحلام، بل هو ليل الوحشة والتأسي لـــ (أبو

الغيط)، وهو ليس تجربة معاناة تعيشها الذات المتوحدة مع وجعها الرومانتيكي، بل وهو وجود معاش يطرز حياة (أبو الغيط) ويحكم معنى وجودها، بينما (النهار والذي يشرق ويضيء، ليعطي الحياة لكل شيء، لا يمنح (أبو الغيط) سوى الكسل والفتور.

وعلى هذا فالوصف يتجاوز الوظيفة التزينية، وظيفة الإنارة لخلفية المشهد، ليغدو إنارة داخلية لعالم الشخصية، بل إن الشخصية ذاتها تغدو مجرد انعكاس بسيط لعالم الأشياء الذي يحتويها وفق قانونياته الطبيعية، فتخل العناصر ملتفة بالبطانة الوجدانية للشخصية المصورة، لكن هذه العناصر الخارجية تمارس حضورها الصلب والفظ على الذوات الإنسانية المجردة من فعاليتها الملموسة في محيطها، فتعيش الشخصية نوعا خاصا من أنواع النفي والتغريب ومن ثم التشيئ كما في قصة (قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً).

حيث مأساة (أبو الغيط) مع المكان تنتهي بمأساة مع الزمن، حيث زمن الآخرين مغاير لزمنه، فالنهار الذي يعطي الحياة لكل شيء، فإنه لا يمنحه سوى الكسل والفتور، في حين أن مأساة (الأدهم) في (قراءة الفاتحة في حقول

البطيخ ليلاً) مع الزمان، تنتهي إلى تلاشي الأدهم في المكان، وضياعه في عناصر الأشياء المشكلة للفضاء المكاني.

فالدهر ينهض هناك عامل يمارس تحولاته وتطاولاته على (الأدهم) فيذهب بهيبته ووقاره ونفاذ شخصيته، بعد أن كان المنصف وسط الظالمين، والد اليتيم، ورجل الأرملة، وراعي المطلقة، وأب من لا أب له.

يلاحقه يستدعي ماضي وتاريخ هذا الرجل أمام تحدي حقول سبع البطيخ التي تسرق يوميا، وعندما ينهض لهذه المهمة، الإخفاق تلو الإخفاق، لينتهي هذا الأدهم الملقب بـــ (الليل) للاختفاء بقلب بطيخة، حتى أنه لم يستطع أن يخرج رأسه من داخلها.

ربما تسربت إلينا رائحة دون كيشوتية من (الأدهم سبع الليل) لكنها رائحة لا تحتمل مذاق المزاح أو الهزل، لأن الجانب الهزلي في دون كيشوت يتأتى من خلال مفارقة الإصرار على عيش الماضي في الحاضر الأمر الذي يقود إلى التشوش والمس العقلي، بينما نحن ــ في حالة الأدهم ــ تجاه رثاء للفتوة والرجولة إذ تتآكل بفعل الزمن.

لقد أضحك سرفانتس العالم لأكثر من ثلاثة قرون ــ من الخرف النبيل لدون كيشوت، ومن فرسه الأعجف، وفروسيته الرعناء، لكن هذا التهكم كان يتأسس على نبوءة برهن تاريخ المجتمع الأوربي على مصادقيتها، عندما حلت الآلة البخارية فالعربة فالطائرة فالصاروخ محل فرس دون كيشوت، لكن الدون كيشوت العربي لم يبرهن إلا على أننا عندما نقعد فارسا، فلن يخلفه إلا جبان وغد ولعل الصورة النموذجية لهذه المأساة الوجدانية العربية تتمثل في صورة فقدان (عبد الناصر).

إن ثلاثية الاضمحلال، فالضياع، فالذوبان للشخصية في النثر القصصي الأوروبي في العصر الحديث بوصفها معادلاً نقيضا لصورة الشخصية في النثر القصصي القديم هذه الصورة القائمة على ثلاثية تدرج صورة البطل، من البطل العملاق في (الملاحم) إلى البطل الأخلاقي (العصور الوسطى) إلى البطل الإشكالي (القرن التاسع عشر) نجد ما يعادلها في مجموعة القعيد بصورة الشخصية الهامشية التي تدوس بين الاضمحلال، والضياع، والذوبان، لكن القعيد يعيد إنتاج إشكالية الشخصية المهمشة في العصر

الحديث، من خلال وعي تاريخي وجمالي خلاق في استكناه الخصوصية السوسيولوجية لهذه الظاهرة في السياق العربي، والمصري تحديدا.

فإذا كان تدرج الشخصية الإشكالية التي رصدها لوكاش في القرن ٩١ تنحدر باتجاه ثلاثية الهبوط والانحدار (اضمحلال ــ ضياع ــ ذوبان) حسب تشخيص غولد مان كمعادل لتوثيق السلعة وأثر ذلك على الشخصية الإنسانية وما لحقها من ضياع واغتراب وتشيئ في المدينة الغربية الحديثة، حيث وجدت هذه الشخصية علامتها ورمزها في أدب الحداثة، فإن القعيد يكتشف مظاهر التهميش، والاضمحلال ليس انسياقًا وراء تقنيات الحداثة والاستجابة لمؤثراتها استجابة خارجية، كما يمكن أن يلاحظ في الكثير من النصوص العربية المعاصرة، بل من خلال سبر مظاهر هذا التهميش في حالة التحاق الإنسان العربي بفضائه الطبيعي والبيئي كثمرة للعجز عن الانفصال عنها نتيجة للتخلف وانحطاط الثقافة، أي بالصورة المعاكسة للسياق التاريخي الأوربي.

فإذا كان الوصف كتقنية حداثية تلازم مع اضمحلال الشخصية في الأدب الغربي كنتيجة لتوثين السلعة وتقدم الثقافة بال ضمير، وبروز عالم الأشياء بوصفه هو الوجود الذي يلغي أي وجود ما عداه، ومن ثم ضمور الفعل الإنساني في العالم الخارجي، وفقدانه لبطولته وجدارته في أن يكون مركزا للكون.

فإن الصورة ذاتها يتم تلمس مظاهرها في هذه المجموعة لكن من خلال رسم لوحة الحياة المهشمة والمهملة للمجتمع الريفي، حيث الاضمحلال والذوبان والتشيئ لثمرة الالتصاق بعناصر الفضاء المكاني والانصياع لضروراته، نتيجة عدم القدرة على الفعل المؤثر في عناصر هذا الفضاء وأشيائه.

هذه الشخصية الهامشية المصورة فنيا ليست إلا معادلاً لواقع تهميش الريف وتحول عالمه وبشره إلى كائنات أنثربولوجية تثير دهشة السياح في زمن الانفتاح واقتصاد السياحة كما في (المؤتمر الصحفي الأخير للفاتنة مباركة) حيث تبدو المفارقة في ذروتها عند اعتبار ما يميز أصالة (مصر المفتوحة) إنما يمكن في قريتها البائسة، وعته

(مباركة)، حيث لكل قرية في ريف مصر مباركتها، مخلوقة لا يعرف أحد أهلاً لها، فذات يوم لا يذكره أحد نبتت من الغيب، وخرجت من رحم المجهول.

تلك هي صورة الأصالة في مواجهة (حضارة هذا العصر المزيفة، وفق خطاب الترجمان)، وهو يتحدث عن شركة كنوز مصر السياحية الأمريكية ــ المصرية. ولعل هذه القصة هي الوحيدة التي تنطوي على استخدام تهكمي وساخر للحكي واستخدام الدلالة المعاكسة للجملة رغم الفصاحة الشديدة التي تكون أجواء القصة.

النثر القصصي، فن مديني تعريفًا، فهو المعادل لنثريات الحياة المدنية وقطاعاتها السفلى بما تنطوي عليه من إيقاعات ومدركات، لكن القعيد يتمكن بأصالة خاصة ونادرة من تطويع هذا الفن لاستجلاء اللحظة الخاصة في مجريات حياة الريف الراكدة، دون توتر رومانسي يكفر بالمدينة المتعمرة لصالح طهرانية الريف كما يفعل معظم الكتاب العرب المنحدرين من أصول ريفية، بل هو يتمكن من الكشف عن أعمق المشاعر الإنسانية والكونية، من خلال هذه الكائنات الغائصة في بؤسها وشقائها، (فمحمد أبو إبراهيم)

في قصة (مناجاة القلب الحزين) يكتشف بعد ثلاثين سنة معنى وأهمية أم إبراهيم في حياته، لكن بعد فوات الأوان، وأم إبراهيم تكاشفه بأنه لم يكن يحبها، ولم يكن يعاشرها كالآدميين، وإنه سيكون سعيدا لمواتها، لكي يتزوج امرأة تنجب له طفلاً يحمل اسمه، أفاضت بذلك دون أن تقول له إنها كانت بمجرد أن تمتد يده إلى جزء من جسمها حتى يقشعر بدنها وتشعر برغبة في القيء، تلك هي تداعياتها الملفوظة والسكوت عنها، بينما هو يقسم أنه لو امتد بها العمر بعد هذه الليلة، لتغيرت حياتهما معا، لكن القصة تنتهي بأنه مضى وهو يبكي.

هكذا تمضي ثلاثون سنة في حياة زوجين، مطمورة بالبؤس وعدم الإحساس بالآخر، سوى ما تكنه المرأة خلال هذه الفترة من نفور واشمئزاز، مع ذلك فهي تعاتبه على عدم محبته، وعدم حسن معاشرته لها، عبر حركة دائرية للزمن، يستخدم فيه القطع والحذف والتقديم والتأخير، والاسترجاع وكل التقنيات في استخدام زمن السرد زمن الحكاية مما يصعب تحليله في هذا السياق.

ليرتقي بفن القص ووظائفه التركيبية والتوزيعية والتحفيزية والإبهامية والدلالية بما تفيض عنه من مشاعر إنسانية متداخلة ومتراكبة تذكرنا بعوالم فوكنر لاسيما روايته (عندما كنت محتضرة).

في هذه القصة تتوازى الوحدة التوزيعية ذات الوظيفة التركيبية في بناء متن الحكاية مع الوحدة الاندماجية ذات الوظيفة الاستبدالية وتتداخل الوحدتان لتكشف بناء القصة عن أبعاد دلالية تشف من وراء الكلمات، وتتوالد في شبكة تناظر الحكاية مع السرد المختلج برهافة الحس وحرارة الشعور.

إن الراوي الذي يهيمن على الخطاب من خلال غيابه في ضمير الغائب وهيمنة الوصف في عرض المكان والأشياء بل والشخصيات أيضا، حيث على هذه الأرضية المكانية (الريف، يتأسس الحكي مما يجعل القصة كتخيل ذات مظهر مماثل للحقيقة، إذ يتمكن القارئ من مرافقة الكاتب في ارتياد أمكنته المجهولة وهو يتوهم أنه قادر أن يسكنها أو يستقر فيها إذا شاء، لكن قارئ هذه المجموعة لن تغريه بالاستقرار في فضاءاتها القاحلة روحيا، وإن كان

يتراسل وجدانيا بشكل عميق مع الوجع الإنساني فيهما، رغم تغاير تجربته عن تجاربها، حتى ولو لم يعش في الريف قط، غير أن هيمنة الراوي لا تتم وفق سيطرته الكلية على الأحداث من خلال إخفائه الضروري خلفها، بل تتبدى هذه الهيمنة من خلال إطلالته، التي تتبدى على الأغلب من خلال نهايات القصص، الأمر الذي يفسر لنا هذه الظلال الرومانتيكية، والوظيفة التعبيرية الشعرية للجملة، من خلال اختتام العديد من القصص بنهايات مجازية لا تنبثق من منطقها الداخلي لهذه الخواتم، ولعل ذلك يتبدى بشكل صريح في نهاية قصة (قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً) حيث الراوي يطل كحكواتي مُعلناً:

عن البطل كنت أقول.. أحكي قصتي، عن الرجل المفعم بالجسارة، عن الأسطورة.. أحكي عن الأدهم، سبع الليل لكم يا أهل بلدتي..

هذه النهايات التي تحل فيها الذات (الراوي) محل موضوعية مآل سيرورة الحكي تتعارض مع منظور الفضاء الوصفي الحيادي، لكنها تلتقي مع تلك النبرة والرنة التي تخلفها الوظيفة الدلالية للوحدات الاستبدالية.

ومثل هذه النهايات نصادفها في القصة (صهد الشراقي) حيث بكاء الأم، ووصول الدموع إلى فمها، يترك طعم ملوحتها في فمها الجاف المتشقق، ثم يردف الراوي معلقًا، و(هي تتذوق طعم الملح الذي كان مألوفًا في حياتها من قبل) لينتهي الحكي القصصي بهذه الجملة التي هي نتاج خطاب الراوي، وليست نتاج نمو الحدث وتطوره باتجاه مصائره المنبثقة عن نموه العضوي الداخلي، فالنهاية المجازية تبدو وكأنها تعليق خارجي على مجريات الحدث.

والأمر نفسه نجده بشكل أكثر بروزا في قصة " الشتاء يأتي إلى الضهرية، حيث القصة لا تعتمد على متن حكائي يشد جميع العناصر في وحدة بنائية، فهي تستند إلى أسلوبية تصويرية، حيث العلاقة بين الكائن والطبيعة تتسم بقسوة جبرية تجعل من الجفاف البارد لا ينبت في الأعماق سوى العقم.

لكن الإنسان رغم هذه الظروف يملك القدرة على الحلم خارج هذا الجحيم المتلف،حيث التوازي بين الملفوظ والسردي والأسطورة (الغلام الرضيع الذي يتكلم؟).

والأسطورة هنا تتناسخ في بيئة عناصر التجربة المعاشة، لتشف عن نوع هذه المعاناة الإنسانية التي تتسرب عبر الحكي والكلمات بما تحمله من انفعالات وجدانية للراوي الذي يبدو متخفيا وراء الحكي، لكنه الحاضر أبدا عبر شحن الكلمات بالمعاني والدلالات، حيث الفضاء الريفي كمكان يتحقق في فضاء النص فيتحول إلى منظور شامل قادر على دمج الأسطورة في مكوناته ليفضي بفضائه الدلالي من خلال الصورة التي تخلقها لغة الحكي.

في حين أن قصة (البكماء) تنطوي على منظورها الدلالي من خلال تعبير الحكي في متن النص، مما يجعل من الدلالة ثمرة تشابك عناصر الحكي ذاته، أي من خلال التحكم بالوحدة التوزيعية ووظائفها التركيبية التي تفضي بالمجاز بمثابته مجازا بنائيا، يتولد من تراكم الأحداث، لا من الوظيفة التعبيرية للغة، حيث إن الفضاء المكاني ليس ضرورة بنائية لتوليد الدلالية، فيمكن للحدث أن يتحقق في الريف أو المدينة فالمعول عليه نوعية الشخصية (البكماء) ونمط صلتها بالمحيط، وطبيعة تواصلها بالآخر، لكن جريان الحدث في الريف يومئ إلى مستوى آخر من مستويات دلالة الحدث،

فالرغبة في التواصل الإنساني ليس حاجة إنسانية للصفوة البشرية، بل إن الإنسان رغم أنه يعيش في هذا العالم الذي يغط في الإهمال والنسيان ينشد التواصل، ويمتلك مشاعر إنسانية رفيعة ليست حكرا على رفعة المقام الاجتماعي أو الثقافي، فالبكم والعجز والعزلة والإهمال لن تعطل في الإنسان قدرته على تحقيق نفسه بالإنسان.

هذه النغمة الإنسانية تتخلل قصص المجموعة رغم بيئتها الريفية الموغلة في محليتها، ورغم القتام والكآبة والسكون هناك سطوع لمشاعر إنسانية لا يمكن وأدها فالأسطى (أحمد) في قصة رحلة الأسطى أحمد وأخته بهية، يرتعش قلبه بالحب حتى ولو بعد الستين، والفضاء الريفي يحضر في هذه القصة بوصفه مناخاً روحيا للبراءة والبساطة والعفوية، ومرجعا لمنظومة القيم في ذهن الأسطى (أحمد)، هذه المرجعية سترتطم بمنظمة مغايرة بشدة، فتنشأ المفارقة أن قلبه الذي ارتعش بعد سكون طويل، لم يرتعش إلا باتجاه عاهرة، فلا يبقى أمامه سوى أن يبكي.

قبل أن ننهي هذه الإطلالة السريعة، فالمجموعة بحاجة إلى وقفات تحليلية مطولة لنتمكن من الإحاطة بفن

القص عند كاتب مجرب وذي خبرة عميقة وأصيلة كالقعيد، نقول قبل الانتهاء من هذه الإطلالة، كنا نتمنى على الكاتب أن يجعل قصته (كما تكتب القصص السياسية الرديئة) آخر قصة في المجموعة، نظرا لما انطوت عليه هذه القصة من دلالات، كان يمكن لها أن تكون خاتمة سفر الفلاحين الذين يصعدون إلى السماء ففزع جرس المقاول من قبل طوابير الفلاحين في دورانهم اللانهائي، كان يمكن أن يكون مجازا بدائيا يتوج حالة الفيقوقة بعد غيبوبة طويلة كان يغط فيها الريف في عالم النسيان والهامشية والإهمال، لينبعث فضاء دلالي جديد.

د. عبد الرازق عيد

رائحة الليل:

ما أن تأتي هذه اللحظة، اللحظة التي يتلـون الأفـق الغربي فيها بلون الدم، وتطول ظلال الأشياء، وتبهت أشـعة الشمس وتتحول إلى لون ذهبي يتمـدد فـي ليونـة علـى المساحات اللانهائية من خضرة الحقول، تتـداخل مسـاحات الظلال مع المناطق التي تغطيها الشمس، تتحـول خضـرة النباتات من اللون الأخضر الرصاصي إلى زرقة خفيفة.

ما أن تأتي هذه اللحظة، حتى يستعد البلد للغوص في بحر من الركود المعتم، ترتفع الظلمة من المناطق الغويطة، الأودية، السهول، تهبط من المساحات الفضائية التي تفصـل بين السماء والأرض، تقرأ، في لحظة الغروب من كل يـوم، في عيون الناس هنا، الحنين لشيء غير محدد، الرغبة فـي العودة إلى منازلهم، الاستعداد للسفر في الليل، للحكايا علـى المصاطب المستطيلة.. في الحقول، الجاموسة والبقرة، وقـد راحت وهي شبه نائمة، تجتر ما أكلته طول النهار.

الليل الأول:

يقوم أبو الغيط من مجلسه (يكون في المصلى، جالسا، يستمع إلى درس العصر، وهو وعظ ديني، يبدأ عقب صلاة العصر، ولا ينتهي إلا لحظة الغسق، ويتناول أمورا عامة) يلم ذيل جلبابه في يده، ويرفعه، تبدو بطن رجله رفيعة، معروقة، عارية إلا من شُعيرات قليلة.. يركب مداسه، يسير ناحية البلد، يعرف جيدا أن هذه هي ساعة المغربية بلا زيادة وبلا نقصان، يذهب إلى التليفون.

(يوجد هناك التليفون، قد يكون التليفون الوحيد بالبلدة، وسلاحليك السلاح، ومكتب الباشكاتب، ودوار العمدة، وحجرة النوبتجية، غير أن هذا كله اسمه التليفون) كي يستلم سلاحه، يوقع بخطه المتعرج، في دفتر قديم، متآكل الأطراف، باهت اللون، باستلام البندقية.

يعود إلى منزله، نسمة هواء كسلى، تعبر الحارة في فتور، يقف على باب منزله، يمسح طربوشه بطرف كمه الأيمن (هذا الطربوش يحمل رقمه، ويميزه عن باقي الناس هنا). ينتعل حذاءه الميري، يخرج. الذين عادوا من حقولهم

مبكرين، يجلسون على المصاطب في ساعة العصر الندية، الحارات تقطر طراوة تبعث الانشراح.

ـــ سلامو عليكو يا رجاله.

كان على أبي الغيط أن يكررها، كلما مر بجماعة من الرجال، يردون عليه:

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أتفضل يا شيخ الخفر.

ـــ الله يكتر خيركم.

البخار يتصاعد من أكواب الشاي، دخان الجوزة يخرج من الأنوف التي اسودت من كثرة التدخين، يرتدون الملابس النظيفة، ذات الألوان الفاقعة والخطوط الطولية والعرضية، خرج أبو الغيط من حجرة التليفون، هبط الظلام على كل شيء، هبت عليه، وهو أمام حجرة التليفون، نسمة هواء، فحملت له رائحة الليل، أدرك أنه مقبل على ليل مفروش بالهموم والأحزان.

الليل الثاني:

سار إلى دركه في شرقي البلد. (والبلد مقسمة، بمعرفة شيخ الخفر شخصيا إلى مناطق، كل منطقة معينة، مسئول عنها خفير، وكل منطقة تسمى درك) أدرك أنه متعب من العمل في الحقل، طول النهار (وظيفة الخفير هنا، من الوظائف التي لا يتفرغ لها أحد، فهي عمل يقوم به إلى جانب عمله الأساسي وهو الفلاحة، في قطعة أرض يمتلكها أو يؤجرها)، ولكن لا بد من السهر حتى الصباح. تذكر عشة وردة، الشاي، المعسل، الضحك حتى ما بعد منتصف الليل، فأدركته بعض الراحة. أوغل الليل في صمته وسواده، السماء من فوقه مفروشة بالنجوم الشاحبة، نباح الكلب، أنين ساقية تدور على البعد، صوت رجل ينادي على آخر في الظلام البعيد، رجل يغني لنفسه، يقطع الغناء، وصوته ليس جميلاً على كل حال، كي يستحث حماره على السير، هدأ كل شيء، صوت رجل بالقرب منه، أمسك بندقيته الميزر، صاح بأعلى صوته:

ـ من هناك؟

ضحك على نفسه عندما عرف فيه الشيخ عبد الفتاح، إمام المسجد، اقترب منه، شم فيه رائحة الليل، عاد إلى وجومه، تذكر أن زوجته، هذا المساء، كانت جميلة، فلعن لقمة العيش، وإنها حكت كعوبها بطوبة حمراء، حتى كاد الدم يبك منها (تقوم المرأة بأفعال محددة، كالطقوس المحفوظة، تقوم بها المرأة مع نزول الليل، وذلك بعد أن تنتهي من عمل العشاء، وبه تتم عملها اليومي، فتغسل قدميها، وتفك شعرها، وتغير ملابس العمل اليومية، بملابس زاهية اللون، خفيفة شفافة).

تمنى أبو الغيط أن يذهب إليها، لا بد وأنها نائمة، أنفاسها تخرج في ليونة، صدرها الممتلئ يعلو ويهبط، الخصر النحيل، البطن المتماسك رغم أنه عرف الحمل أربع مرات. أخرج أبو الغيط علبة الدخان الصدئة (يلف بنفسه سجائره، ولا يشرب سجائر المكنة، إلا في مناسبات خاصة، كالفرح أو المأتم، أو عندما يعزم عليه أحد بها). لف سيجارة رفيعة حتى يكفيه الدخان حتى الصباح.

وجد نفسه يغوص في كتل الظلام ومساحات الصمت فترحم على كل شيء فكر: في كل مرة يسقط الظلام يستحق

الإنسان أن يتلقى العزاء، في الظلام العميق يموت الإنسان بمفرده، سار أبو الغيط قليلاً، نظر حوله، في الظلام، تتوه معالم الأشياء، تتغير سحنتها، لا يملك الإنسان إلا النظر في أعماق ذاته.

عاد أبو الغيط إلى مكانه الأصلي، الليل بدا يخر ظلامه وصمته. الشيخ عبد الفتاح فوق مئذنة سيدي أحمد النشابي:

ـــالله أكبر، الله أكبر.

عبد الستار جاره، يروي أرضه التي اشتد ظمؤها للماء. وردة في عشتها، توزع الدور الأول من الشاي. محمد محمد، يستعد لإغلاق دكانه، بعد أن قل عدد الزبائن. (لا يبقى بعد صلاة العشاء، حول دكانه سوى عدد قليل، يقفون أو يجلسون، لأسباب غير البيع والشراء، لسماع نشرة الأخبار، أو الأغاني من الراديو، أو الحديث بلا هدف واضح، سوى الرغبة في إزجاء الوقت، ونادرا ما يقوم أحدهم، أثناء ذلك، إلى البنك، في طلب شيء ما) الكلوب في دكانه، بهت نوره، هجمت عليه كتل الظلام من كل جانب، فتحي العايق يمني نفسه بليلة مترعة بالوصال مع وردة.

يمر عليه شيخ الخفر، ويوصيه بكذا وكذا، يطلب منه بعبارات محفوظة أن يكون يقظًا. لا بد وأن يخرج أبو الغيط علبة الدخان، إنه يدرك أن ما بقى فيها قليل، ولكن ما من إخراجها بد، يبدي شيخ الخفر تمنعه، يلح عليه، يمر الأمر بسلام، بعد ذلك، تأتي دورية النقطة الثابتة.

ـــ من هناك؟

يضحك الشاويش فتحي:

ـــ لا يا ولد صاحي.

الغيط تتم الأمور مثل جميع الليالي، كل هذا يمضي سريعا، يذهب كل لحاله، لا يبقى في نهاية الأمر، سوى أبي بمفرده. يحدث الصمت ويتحسس الظلام، يسمع كل همسة، كل آهة تخرج من البيوت التي يحرسها. يمضي الليل، ثقيل الخُطا، بطيء السير، أخرس، له رائحة الأرض المروية حديثا، أو رائحة الزرع الأخضر، في فصل الربيع.

الظلام يخنق البيوت، تغوص فيه هامات النخيل وشواشي الأشجار، فلا يبدو منها شيء ما. الصمت يغتال التأوهات، وكلمات الشوق الملتاع، نقيق الضفادع، صفير الصراصير، أنين السواقي، وغناء السحاب الأزرق الداكن،

لا تبدو منه سوى مزق صغيرة باهتة، وأبو الغيط يتكئ على بندقيته الميزر الصدئة في خوف وحذر.

بين الحين والآخر، يسمع سعلة من بعيد، يرد عليها (هذه السعلة هي الدليل الوحيد على أنه يقظ لم ينم، وهي تقليد وضعه لهم شيخ الخفر بنفسه، وتجري الأمور، عادة، على هذا النحو، تبدأ من قبل البلد، من أول خفير، وتستمر حتى آخر خفير، وهكذا، وما على كل خفير يأتي عليه الدور، إلا أن يسعل بصوت عال).

تهب الرياح فجأة، حاملة معها رائحة الليل، يصيح:

ـــ من هناك؟

تتسلل قطة بجوار الحائط، فيقول:

ـــ من هناك؟

ولا أحد سوى أبي الغيط نفسه.

عاد أبو الغيط من عشة وردة، شرب الشاي، أخذ نفسين من الجوزة التي داخت من كثرة اللف وسطهم. عندما وقف تماما، وضع البندقية على كتفه، وضع يده اليمنى في جيبه، موهما الكل أنه سيدفع الحساب.. همست وردة في حروف لينة ممطوطة:

ــ عيب يا شيخ الخفر.

تعالت أصوات الباقين:

ــ يا راجل عنك.

طلبه على حسابي يا وردة.

حمل بندقيته وهمومه، خرج من العشة، عاد إلى الصمت والظلام.

ــ من هناك؟

ينظر إلى البيوت. فكر، لو تعلمت في المدارس، لحاولت عد النجوم (يستخدم النجوم لمعرفة الجهات الأربع الأصلية، وبالتالي لمعرفة البلدان المجاورة، وعن طريق النجوم، يعرف أبو الغيط، لحظة انتصاف الليل، وساعة قدوم الفجر).

ينظر إلى البيوت التي يلفها الظلام المعتم، عندما يفك السحاب الأزرق الغامق حصاره حول القمر، تبدو على جدران البيوت خطوط متعرجة من أيام انتخابات مجلس الأمة، لو كنت أعرف القراءة، يدوس على ظله، يخنق السحاب القمر مرة أخرى، يموت ظله، يضيع، يتوه كل شيء، يبحث عن الظلال تحت قدميه، لا يجد شيئًا.

الليل الثالث:

منتصف الليل تماما

النجمة أم ديل تعبر سماء البلد في سرعة، بعد قليل تمر طائرة كل ليلة، متجهة إلى الناحية القبلية. لا بد وأن بداخل الطائرة حياة كاملة، ورجال مسافرون إلى بلاد بعيدة، لم يسمع عنها أبدا، السماء فوق القرية، بحر بلا شطان، متاهة غريبة، ينبوع حزن، النجوم في داخل أبي الغيط منطفئة، مترعة بالأسى، الليل يرمي عليه الحكايا، القصص الغريبة.

نسمات الهواء تصافح وجهه في كل ليلة، تمر نفس الطائرة، لا تلقي على أبي الغيط السلام، لا تشعر به، مع هذا فهو يناجيها، يقول لها كل شيء، يقول لها أن زوجته غاضبة منه، وأن وردة، متاهة الرغبة، وينبوع الأحزان، ما زالت تصده، وأن علبة الدخان الصدئة تفرغ عن آخرها، قبل الفجر، أو بعده بقليل، وأن النجمة أم ديل تأخرت هذه الليلة، وأن الصمت غويط كالموت، وأن الظلام مقبرته، وأنه حزين، حزن هرم عجوز مثل دوار العمدة، وأنه، وأنه.

المسافرون في هذه الطائرة، لن يعودوا إلا بالوهم والجنون، بعد مرور الطائرة يشرق القمر، نوره الفضي يغسل الأشياء، يمنحها شكلاً جديدا من أشكال الحياة، شكلاً هادئاً، فضي اللون، ساجيا.

على ضوء القمر، تكتسب التصاوير والرسومات والأشكال على الحيطان حياتها. تتكحل بقطرات فضية من الضوء المصفى، تعيش من جديد، حج مبرور، أبو زيد الهلالي يركب حصانه، صورة الكعبة الشريفة. والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، عند دكان محمد محمود. بقالة الضهرية المتحدة. الشكك ممنوع والزعل مرفوع، والرزق على الله مضمون.

نفس ما يدهش أبا الغيط، أن هذه التصاوير، تكتسب في منه الليالي المقمرة معنى جديدا، شكلاً معبرا، هي الرسومات، ولكنها تبدو بالنهار شيئاً عادياً، باليا، تفوح رائحة القدم، يعلوها غبار يؤكد بطء مرور الأيام والليالي. أما في الليالي المقمرة، فإنها تعيش من جديد، تتحرك، تروح وتجيء، يعايشها أبو الغيط، غير أنها تموت في نفسه، في

صباح اليوم التالي، وأبو الغيط، حتى الآن لا يدري تفسير ذلك.

قبل الفجر.

يعلن عن قدومه صياح الديكة، وقدوم نجوم ثلاثة من ناحية قبلي البلد، وعصا قصيرة، في تشكيل بديع.

يأتي عبد الفتاح، ذاهبا إلى الترعة، يعود في الضحى برزقه من السمك.

ــ صباح الخير يا شيخ الخفر.

تكون ساعة الفجر الرمادية الموحشة تتداخل الأشياء. السكون يصل إلى منتهاه.

ــ صباح النور.

يسأله أبو الغيط.

ــ معاك كبريت؟

يولع له السيجارة الباقية، يتراقص اللهب الباهت، ينطفئ، يجثم الظلام على كل شيء، يقول له عبد الفتاح:

ــ طيب عن إذنك بقى.

يتركه، يمضي، يعود أبو الغيط إلى الصمت والوحدة، يتحسس البندقية، ينظر إلى الاتجاه الذي سارت فيه الطائرة. ينحسر على كل شيء.

في الصباح، يذهب إلى زوجته، لا بد وأنها غاضبة، لن يقول لها أي شيء، يأخذ منها ثمن باكو دخان، يخرج، يذهب إلى الحقل.

عندما سمع الصوت المألوف.

ــ الصلاة خير من النوم.

هان عليه كل ما لقاه في ليلته.

يبدأ لون النهار الأزرق. الظلام يتحول، ببطء، إلى زرقة خفيفة، تبدأ ملامح الأشياء تتضح. الزرقة تذوب في بحر رمادي، يسمع شقشقة العصافير. صوت تساقط قطرات الندى فوق الأوراق، يدوس بقدمه على النجيل الأخضر. اللون الذهبي يتداخل في كل شيء، حديد البندقية الصدئ، طنبوشة الساقية القريبة.

قضى أبو الغيط حاجته بجوار مدار الساقية. أقعى على شط القناة، أخذ بيديه قليلاً من الماء البارد، رفع يديه إلى وجهه، ترك المياه تناسب على ملامح وجهه المجهدة،

أدرك أنه مرهق، مثقل بالتعب والإعياء. وعلى الرغم من أن المياه الباردة. تحمل إلى نفسه إحساسا بأنه يولد من جديد، إلا أنه أدرك، أنه يوم آخر جديد، يشرق، يضيء، يعطي الحياة بكل شيء. يأتي له وحده. بالكسل والفتور.

مناجاة القلب الحزين

" ١ "

عندما عاد محمد أبو إبراهيم، من الحقل في المساء، فوجئ بجمع من الناس أمام بيته. دهش، أسرع في سيرة نبت في داخله أكثر من تساؤل، وحاول أن يتصور ما يمكن أن يتسبب في جمع هذا العدد من أهالي البلد أمام منزله. وعندما أصبح على عتبة داره، لم يشعر به أحد، كانت الناس في داخل المنزل أكثر منهم خارجه، حاول أن يبعد الأطفال والصبية المتزاحمين، كي يوجد لنفسه طريقًا يدخل منه، تنحنح أكثر من مرة، وضع الفأس على الأرض.

ـ فيه إيه يا جماعة؟ رفع صوته كي يشعر أهل البلد بوجوده، وبأنه عاد أخيرا من الحقل، وبأنه متعب مهدود الحيل، يود أن يرمي نفسه، وينام نومة لا يقوم منها.

ـ فيه إيه يا جماعة؟

هذه المرة فقط سمعوه، واتجهت إليه الأنظار، ودون أن يدري، ارتفعت يده الخشنة وعبثت بشاربه الكث، ونزلت أصابع يده لتمر على ذقنه الطويلة، رد أكثر من واحد:

ـ مراتك.

وقبل أن يسأل عما حدث: أشارت الأيدي والعيون إلى الحجرة الداخلية، وهي الحجرة الوحيدة في منزله، كانت الحجرة مظلمة، ثمة لمبة جاز صغيرة في كوة بالجدار في المقابل، غير أن الظلال الكثيرة لرءوس وأجسام تروح وتجيء مع النور الباهت، كانت تفرش الحجرة كلها فتبدو مظلمة، وبعد أن ألفت عيناه الظلام، بدا له الأمر كله، زوجته ممدة على الأرض، ضئيلة لحد الموت، كانت عيناها تنظران إلى مكان ما في السقف، وكان تنفسها واهنًا لدرجة أنه تصور أنها ماتت.

ـ ما لها يا جماعة؟

لم يتطوع أحدهم بشرح الأمر له، قال كل منهم كلمة. كانت الكلمات مهوشة، وبلا ترتيب، غير أنه فهم الموضوع كله، زوجته مريضة، اكتفوا بقولهم أنها مريضة، أما ما هو المرض؟ وكيف بدأ الأمر؟ فلم يكن هناك ما يقال، فالمرض

يبدو لهم وكأنه ليست له بداية محددة وليست له أيضا نهاية في يوم ما. أعاد نظره في الجالسين حول زوجته، كان هناك تساؤل يرف على شفتيه كالطير الحبيس، إنهم فعلوا المطلوب طوال النهار، فالمرض فاجأها وقت الضحى، وطلبت هي منهم ألا يرسلوا في طلبه، خوفًا على اليومية.

ـــ وإيه العمل دلوقت؟

نظر كل رجل إلى الواقف بجواره، رفع أكثر من رجل منهم يده إلى رأسه، علامة أنه يفكر في الأمر جيدا.

ـــ لازم الدكتور.

ـــ دكتور.

البلدة صغيرة، صغيرة جدا، نقطة باهتة لا حجم لها على خريطة الوادي، وليس بها مستشفى، بل تتبع الوحدة المجمعة في بلدة قريبة، والطبيب فيها يسكن في البنادر البعيدة، وما أن يؤذن الظهر، حتى ينظر إلى ساعته، ويخلع البالطو الأبيض ويرمي السماعة، إنه مسافر إلى البندر، وبعد سفر الدكتور بدقائق يبدو القسم الصحي لمن يراه، وكأنه مغلق منذ ألف عام مضت. في دقائق قليلة، يكون المرضى قد طردوا (الدكتور سافر خلاص) هكذا يقولون لهم. وترفع

الكراسي والمناضد وتغلق الأبواب ويكنس القسم جيدا، ويذهب كل لحال سبيله.

ـ والعمل؟

يتساءل محمد أبو إبراهيم من جديد:

ـــ لازم الدكتور، الولية بتموت.

ـــ بس الدكتور في البنڤار.

يحاول أن يفتح فمه، أن يوضح الأمر للواقفين حوله. الطريق طويل، ولا توجد مواصلات من الآن وحتى الصباح. الليل وقت الهجوع والنوم والراحة، حتى الشياطين تستريح فيه، ولا توجد عنده ركوبة كي يذهب بها إلى مستشفى المركز، كان يود أن يكمل أنه ليست معه نقود بالمرة، ولا مليم واحد، لا معه ولا في بيته، ولا في أي مكان في العالم. غير أنه توقف عندما انبعث أنين مجروح من زوجته، تمثل كل منهم لحظة سماعه كلمة الآه، معنى الألم، معنى أن يتألم الإنسان، ولا يكون هناك أمل سوى الانتظار حتَّى الصباح.. تطوع أحدهم بأن سلفه ركوبته، وتطوع آخر بحراسة بيته حتى يعود، وذهب ثلاث إلى بيته وعاد وبيده ربع جنيه، أقرضها له حتى يفرجها الكريم. وهكذا. وقف

الجميع وخطا محمد أبو إبراهيم خطوتين داخل الحجرةكـي يحضر مداسه وجلبابه النظيف.
أمام باب داره، عاونوه في حمل زوجته، وأركبوهـا على الحمار، ودعوا لها بالشفاء العجل، وبطول العمر، وسار

بجوارها. كان يسندها كي لا تقع ويسوق الحمار ويرشده إلـى

الطريق.

" ٢ "

الوقت هو أول الليل، وفي الشارع الرئيسـي، كـان الرجال يجلسون على المصاطب وأمام دكاكين البقالة، كـان الكل ينظر إليه، ويبدو أنهم جميعا كانوا يعرفـون حكايتـه، ومن الراديو سمع صوت رجل وامـرأة، كـان يتحـدثان، ويضحكان، كان صوتهما موشى بحبور وهدوء لم يعرفهمـا طول عمره، كان الحديث عن نظافة شوارع المدينة وتعطـل أجهزة التكييف في سينمات الدرجة الأولى.. وضيق مكـان انتظار السيارات أمام الشيراتون، وعدم توفر أدوات التجميل المستوردة في المحلات العامة.

لم يفهم من الحديث كلمة واحدة.

عرف الأمر كله، وهو يرتدي ملابسه. في الصباح، كانت زوجته تكنس وسط الدار، كانت جالسة وفي يدها مقشة صغيرة، وكانت تكنس في أحد الأركان. وفجأة، توقفت عن الكنس، وضعت المقشة على الأرض، ووضعت يدها على ظهرها، رفعت رأسها إلى أعلى، بدت كأن رأسها سيسقط من فوق الكتفين، فسندته بيدها. صرخت، خرجت الصرخة واهنة، ضعيفة، ثم سقطت على الأرض، وظلت في رقدتها إلى أن رأتها جارتها وصوتت وحضر أهل الحارة كلهم.

قالت جارته: إنهم بمجرد أن أرقدوها في الحجرة الداخلية، أحضرت لها حلاق الصحة. كشف عليها، أجلسها، فتح عينها، سمع نبضات القلب، وقال إنها دوخة بسيطة، وأنها ستشفى بعد أن يشرط لها، كي يصرف الدم الفاسد، ذهب إلى دكانه عاد، كانت معه حقيبة، وشرط لها الحلاق بالموسى أكثر من شرطة في جبهتها، عندما سال الدم، قال الحلاق إنه دم أسود، وهو دم فاسد، بل وهو السبب في الدوخة التي حدثت لها.

تقدم النهار، ولم تتحسن حالتها، وتطوع أكثر من رجل، وتطوعت أكثر من امرأة، بوصف وصفات كثيرة، وذهب الجيران إلى منازلهم وأحضروا المطلوب وعملوا اللازم، غير أن حالتها لم تتحسن، لدرجة أن قال أحدهم، أن الحكاية ليست حكاية مرض، وإنها يجب أن تذهب في المساء إلى الشيخ عبد المقصود، وفي الحضرة سيزول التعب ويذهب المرض. وقال الجميع، إنها غلبانة، وأن زوجها رجل على قد حاله، وأن الشيخوخة قاسية وأن عمرها مع زوجها لا معنى له، وهما معا بلا أطفال وبلا أرض وبلا أهل. إنه شيء مفزع إلى أبعد الحدود.

بعد قليل، تركوها وانصرفوا، بل إنهم منذ البادية الأولى، ومنذ أن حضروا، كان كل منهم يفكر في أعمال أرجئت وأشغال يجب أن تتم، وبعد أن حضر الحلاق ومضى، وقال كل منهم، ما كان يود قوله، حتى فكروا في الانصراف، غير أن أحدا منهم لم يشأ أن يكون هو البادئ بترك المنزل إلى أن قامت واحدة، وقفت تماما، نفضت التراب من فوق ملابسها، استأذنت واعتذرت بأن عندها

أولادا صغارًا، وزوجها في الحقل يجب أن تجهز له غداءه، و.. و..

قبيل العصر، كانت كلمات (آه ياني، ويا ناس، ويا عالم، ويا خلق هوه) تملأ الحارة، في البداية، لم يتصور أحد أن الأصوات العالية تصدر من المرأة المريضة، غير أنهم بعد أن حضروا إليها أدركوا أن الألم عاودها أكثر من المرة الأولى، فجلسوا حولها، وراحوا يتسامرون إلى أن حضر زوجها.

" ٣ "

في الطريق، كان الليل والنجوم البراقة. وفي الظلام لم يكن يبدو سوى مجرى مائي يلمع تحت نور النجوم الفضي اللامع، وعلى البعد أمامهما، ثمة أنوار باهتة صغيرة كحبات الخرز، تلمع وسط الظلام.

وكانت الأرض في كل النواحي حولهما، حفرة باردة عميقة، لا حد لعمقها، إنها مثقلة بذكريات الربيع والصيف، وتنتظر في نفس الوقت الشتاء القادم الذي لا مفر منه أبدا. لقد كانت الطبيعة من حولهما، تمر بأيام الخريف.

وفي الحقول الواسعة لم يكن هناك صوت ساقية تدور، ولا نباح كلب، ولا غناء فلاح يملأ رحابة الليل، ويبدد وحشة الظلام الدسم، ويتغنى بكلمات عن المرض، والعليل الذي طال اشتياقه للعلاج، وخيانة الأصدقاء.

كان أمامه ومن خلفه جسر طويل ممتد، لا يدري أوله ولا آخره، شعر بأنه متعب ومهدود الحيل وغير قادر على المشي، حاول أن يسرع في سيره كانت زوجته تئن، أنينا منقطعا لم يكن يخرج من فمها سوى كلمة آه يأني، وعندما ازدادت تأوهاتها، حاول أن يفتح فمه، أن يكلمها غير أنه لم يجد ما يقوله واكتشف في هذه اللحظة، أنه لم يوجه لها كلمة واحدة طوال الطريق، فكر في أن يقول لها سلامتك، أو أن يقصر الطريق بكلمة أو كلمتين، غير أنه لم يمكن قد تعود على الحديث معها من قبل.

بدا الطريق طويلاً إلى البندر، وراح محمد أبو إبراهيم يتخيل الطريق كله، وراح يتذكر آخر مرة سار فيه، وحاول أن يحسب ما يستغرقه الطريق من وقت، وغرق بخياله في أنوار المستشفى وأغمض عينيه من الضوء الباهر، وراح يرص الكلمات التي سيقولها للدكتور على طرف

لسانه، ذلك أنه بعد أن يصل إلى المستشفى، يربط الحمار جيدا ويموت العقدة على الحديد كي لا يسرقه أحد، فأولاد الحرام في البندر لم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا، يحمل زوجته على ذراعيه، كم ذكره ذلك بليلة الدخلة، ليلة أن حملها من المحمل حتى حجرته على يديه، كان ذلك منذ ثلاثين عاما

وكانت الأيام حلوة، وكان هو شابا قويا، وكانت زوجته فتاة رائعة، رغم الفقر، كان لكل شيء طعمه الخاص، أما الآن في الاستقبال، يضعها على الأرض، والأرض البلاط تذكره بهواء الجنة الرطب، يجلس بجوارها، ينتظر حضور الطبيب، ويحضر الطبيب، ينظر إليه، وقد يركله بقدمه.

ـ مالك يا راجل أنت.

في هذه اللحظة، يقف محمد أبو إبراهيم، يمتد أمام الطبيب ضخما كالمارد، يبلع ريقه، يمد يده ضارعا للدكتور، يحاول بسرعة أن ينتقي أحلى الكلمات التي سمعها طول عمره، هنا حاول محمد أبو إبراهيم أن يتذكر العبارات التي يسمعها، عادة، من الراديو ومن خطب المساجد يوم الجمعة، ومن الشباب الذين يتعلمون في البنادر البعيدة.

ـ يا سعادة البيه

كبـار قد يقاطعه الدكتور، وقد يتركه ويتحدث مع آخـرين، مـن فالاستقبال في مستشفى المركز ممتلئ دائما بأناس من الخلق غير أنه سيعاود الحديث، وسيقول كلمات أحلـى الكلمات التي تدور في ذهنه الآن، حتى يلين قلـب الـدكتور ويعالج زوجته.

في الطريق، بدأت زوجته تفيق، وخرجت من بـين شفتيها عبارات صغيرة كلمات مكسرة مهشـمة، استدارت معانيها في ذهنه بصعوبة بالغة، قالت له: إنه مرتاح البـال لأنها ستموت بعد لحظات، ثم يتزوج هو من امرأة أخـرى، تنجب له طفلاً يحمل اسمه، وأنه لم يكن يحبهـا ولـم يكـن يعاشرها كالآدميين.

أحس محمد أبو إبراهيم. أن الكلمات تغـوص فـي روحه كالسكاكين، حاول أن يقول لها إنها على حـق، وأنـه نادم على ما حدث، غير أنه صمت، تمثلت له وهـو سـائر بجوار الحمار، أشياء كثيرة، تزوجها لأنـه كـان يحـب أن يتزوج، ومن اليوم الأول. كان عليه أن يذهب إلـى حقـول الآخرين كي يعمل بالأجرة، في طريق عودته لم يكن يذكره بأمر زوجته سوى الحناء الحمراء في كفي يديـه وقدميـه.

وعندما عاد إلى منزله، لم يحدثها عن شيء، لأنه لم يكن هناك كلام يقال، وعاش معها، وعاشت معه، كان يذهب إلى حقول الآخرين، يعمل باليومية، كل يوم في حقل، أما هي فكانت تذهب إلى منازل الآخرين تعمل بأكلها، وبعض الزاد تعود به إلى زوجها آخر النهار.

إن " محمد أبو إبراهيم " يكتشف كل هذا الآن، دفعة واحدة، ويقسم لو أنه امتد بها العمر بعد هذه الليلة، لتغيرت حياتهما معها، لقد انقضت أهم سنوات العمر، غير أن هذا لا يهم كثيرا، حتى لو بقى لهما من العمر يوم واحد فقط.

" ٤ "

قرب البندر، أو هكذا خيل إليه، طلبت منه زوجته أن يوقف الحمار، أوقفه، نظرت إلى الليل والحقول الواسعة، الأشجار الواقفة في صمت، مجرى الماء الذي يلمع وسط الظلام، طلبت منه أن يعود بها إلى البلد، اعترض، لقد أوشكا على الوصول. وأنوار المستشفى ها هي وهناك السرير والطبيب والطعام ورائحة الدواء والماء والصابون والمطهرات، قالت له لا فائدة، لن تموت إلا في البلد، حاول

أن يشرح لها ما يود قوله، لم تسمعه، أصرت على العودة إلى البلد.

أحس محمد أبو إبراهيم فجأة، وبدون مقدمات أن حياته كلها تتقلص وتتحول إلى نقطة واحدة من الألم الذي لا يمكن احتماله، كان هو بالفعل يائسًا من المستشفى ومن الدكتور ومن الأنوار الباهرة والشتيمة والصفع على القفا، بل إنه يتذكر أن واحدا من أهل البلد لم يدخل المستشفى، وخرج منها على قدميه، كلهم خرجوا على نقالة.

ترك مقود الحمار، استدار الحمار ببطء وسار في الطريق ناحية البلد، كان الجو ساكنًا، ثمة وشوشات بين أغصان الأشجار العارية من الأوراق وكانت الحقول خالية إلا من الأخصاص والعشش التي كانت تبدو متراكمة وسط ظلام الحقول. كان هواء الليل ثقيلاً. ووجد محمد أبو إبراهيم نفسه يقول لزوجته:

ــ فاكرة يا أم إبراهيم يوم ما خطبتك؟

أضحكها حديثه، توقف أمام كلمة إبراهيم، وإبراهيم هو أُمنِيَة عمرهما المعلقة في أماقي العيون المكتوبة على الجباه. الابن الذي لم يوجد في يومٍ، من الأيام إلا في

أحاديثهما، خرجت الضحكة من فمها خافتة، غير محددة الملامح، أقرب إلى الأنين، ومن الضحك، دمعت عيناها وحلمت برائحة الملابس الجديدة، وليلة الدخلة، والحنة الحمراء، ودت أن تقول له إنها في لياليها الأولى معه، كانت تخافه لحد الموت، وكانت بمجرد أن تمتد يده إلى أي جزء من جسمها حتى يقشعر بدنها، وتشعر برغبة في القيء.

في الليلة الأولى لبدات في ركن الحجرة من الخوف حتى الصباح. وبدأ لها الليل رحلة عذاب في انتظار طلوع النهار. وعندما كانت تبدو منه أي حركة خلال نومه، كانت تقترب أكثر من الجدران تطلب منها الأمان.

ـــ مالك يا أم إبراهيم؟

نظرت إليه، لم تقدر على فتح فمها:

ـــ المشوار لِسه طويل يا أصيلة. ارتمت نظراته على ليل مفعم صامت، إن محمد أبو

إبراهيم يسير بجوار الحمار مبهور الأنفاس ويتكلم بصوت سريع متهدج كأنما قد نجا من حريق أو أنقذ من غرق، ويعبر عن نفسه بعدم تكلف وبشكل يشبه سذاجة الأطفال. ما لها أم إبراهيم؟ الحقيقة أنها لم تمرض اليوم، ولا الأمس، إنها

مريضة منذ سنوات مضت، سنوات طوال وهي تئن وتتوجع لم وتقول آه ياني، ويا ناس ويا خلق هوه ويا حكماء بر مصر ولا داووني، غير أن أحدا ما ولا حتى محمد أبو إبراهيم نفسه يسمعها، وظلت طوال سنوات العمر وهي تئن وتتوجع من مجيب. ها هو البلد مرة أخرى. وقرب البلد، وعادت التأوهات، كان الليل والظلام والسكون يوحي له بمعنى الموت، وكانت نفسه قد هدأت، وعندما قالت آه لأول مرة سرح خاطره، ونظر فلم تطالع عيناه سوى الظلام، وقالت آه مرة أخرى، فأدرك معنى الألم، معنى أن يجد الإنسان نفسه بإزاء إحساس لا يستطيع التعبير عنه إلا بالتأوه، آه ياني. خرج الصوت من الفم، فوصله فورا. إن " محمد أبو إبراهيم " يشعر الآن أن هذه الآه تخصه هو تنبع منه، تخرج من فمه، وعندما ارتع صوتها، أحس أن طبقات الصوت تغوص في لحمه كقطرات الدموع الدافئة، وبدلاً من أن يحاول إسكاتها أو أن يقول لها إن البلد قريب، وأن المنزل على بعد فركة كعب، بدلاً من كل هذا وجد نفسه دون أن يدري يقول معها آه، تنطلق من فمه مبحوحة تقطر ألما وحزنا ومرارة

قالها أول مرة، فأحس بها تسقط فوق حبة القلب فتريحه وفي المرة الثانية خرجت منه عالية فأحس بدوخة ورعشة.

وهدءا معا، ومن حولهما كان الليل يعشق صمت الجراح، سار محمد أبو إبراهيم في صمت، كان يسير ساهما، خلف الحمار ويده ممسكة بزوجته. وعيناه تخترقان الظلام أمامه.

لقد كان يبكي.

الشتاء يأتي إلى الضهرية

... وكان أن كافأ حاكم البلاد الطفل الرضيع، بمائة جنيه كاملة، بعد أن استمع إلى نبوءته، وأخذ الطفل المائة جنيه من حاكم البلاد بيمناه، وكانت ورقة واحدة، وأعطاها لأمه، التي كانت تحمله على صدرها. ثم مات على الفور.

غير أن الأيام صدقت نبوءة الطفل، وعمت البلاد أوقات عصيبة.. "

ومن حكايا العجوزة، في ليالي الشتاء، المستطيلة الوجه ". وسميت الضهرية، باسم الظاهر بيبرس، بمناسبة خليج الإسكندرية، وكان ذلك سنة اثنتين وستين وستمائة هجرية.

" من كتب التاريخ "

" ١ "

قبل مجيء الشتاء من كل عام، تبدأ الحياة في الضهرية، في الاستعداد للبيات الشتوي، ومجيء الشتاء إلى الضهرية، يعني جملة أشياء، في الحقول، تتساقط الأوراق

الخضراء من فوق الأشجار، تذوي، آخذة معها الأمل والرجاء، تبدأ الحشرات الحقلية في تجميع مواد غذائية كافية، تخفيها في أماكن بعيدة عن عين ويد الإنسان، تصافح الوجوه، نسمات المساء اللينة الطرية، مثقلة برائحة الشتاء المقبل، تتجدد هذه الرائحة في أنوف الناس، بأريج الأرض، بعد رخة السماء الأولى.

ـــ كل سنة وأنت طيب.

في الحقول، يعمد الرجال إلى الأخصاص، يسدون الثقوب الموجودة بها، يقيمون جدارا في الناحية البحرية، التي تركت خالية في أيام الصيف الحارة، يخزنون عيدان الحطب، حيث تحمل معها في حرارة الصيف وذكرياته العزاء في الأيام الباردة المقبلة. يحفرون في الأرض، في منتصف الخص تماما، حفرة، يستعملونها راكية لإشعال النيران. يخفون في مكان ما، من الخص، قوالح، وقطع من الخشب الجاف، وبذلك يتأكدون أن الخص أصبح مناسبا لقضاء ليالي الشتاء الطويلة.

تبدو الحقول، في لحظة العصاري، خالية تماما، مساحات لا نهائية من السواد المعتم، وبين هذه المساحات،

تبدو قطع صغيرة من الخضرة الرصاصية. ومجيء الشتاء يعني أن يذهب الرجال إلى سوق التوفيقية، يوم الثلاثاء، أو إلى كفر الزيات، لشراء الغيار الشتوي، يشترون ملابس ثقيلة من الصوف، تقيهم برد الشتاء.

في الشتاء، يقل سفرَ الناس إلى البلاد الأخرى، فالضهرية لا يصلها بالعالم الخارجي إلا طريق مترب، لا يصبح صالحا للسير في أيام الشتاء، بسبب الأمطار الغزيرة، يلتصق الناس بالبيوت والأرض، يجترون ما حوته القلوب من ذكريات أيام الدفء الماضية، يأكلون المخزون من الطعام، ويتشممون رائحة الدفء في الأيام الباردة.

في الأيام الباردة من كل عام، يذهب الأطفال إلى المدارس، وتسمع في الضهرية بين الحين والآخر، صوت جرس، وترى أمام مدرسة أنصاري سمك الإعدادية، ركوبة تلميذ صغير، أتى بها من عزبة نائية، حيث لا توجد مواصلة سوى هذه الركوبة، في الصباح الباكر، والبخار يخرج من الأفواه مع الكلمات، حاملاً رائحة الدفء إلى الناس، تشاهد التلاميذ حاملين كتبهم، ذاهبين إلى مدارسهم، يتناقشون في الصباح البارد، في أشياء بسيطة ساذجة، ويوجد في

الضهرية، ثلاث مدارس وكُتاب. مدرسة إعدادية، ومدرستان ابتدائيتان هما مدرسة الوحدة المجمعة بالضهرية، ومدرسة عسران عبد الكريم، وكتّاب يحتل جزءا صغيرا من مسجد سيدي أحمد عبد الله النشابي، يحفظ فيه القرآن الكريم، وتفسر الأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد رخة السماء الثانية، يتأكد الناس أن الشتاء قد أتى فعلا، يخرج الرجال، بيدهم فئوس، يجلطون بها الطين، يسلكون القنوات الصغيرة لمياه المطر المتجمعة في قيعان الحارات، يفرشون بكميات التين الجافة الحارات، تبدو نقاط العرق الحارة على الجباه كشيء نادر الحدوث في هذه الأيام الباردة، يعود الرجال إلى بيوتهم، وتكون الدنيا قد لإيَتْ، يكفنون الأحلام التي لم تتحقق بعد، في أكفان بيضاء، يوسدونها في أعماق القلوب، انتظارا لمجيء الربيع المقبل.

في الشتاء، تهاجر الطيور، تهجر أعشاها القديمة، تطير مهاجرة نحو الجنوب باحثة عن الدفء، مخلفة وراءها الحقول والمنازل والأشجار خالية من كل شيء، تتناثر أعواد لا القش الصفراء، التي كانت تتكون منها الأعشاش في الجو، مثيرة في النفوس إحساسا سائلاً بالأسى، في ليالي الشتاء

يسمع الناس غناء الكروان، يخدش الصمت الليلي، وعندما يولد الصباح على صفحة الليل، لا يسمعون شقشقة العصافير، ولا زقزقة القمري، وفي الصباح، تشرق الشمس اللينة الشتوية، وتبدو الضهرية مغسولة، ندية بمياه المطر المتساقطة في الليلة السابقة. في لحظة العصاري الندية، يجلس الرجال تحت الأشجار، لا تبول عليهم الطيور الصغيرة، ولا يتفاكهون بذلك، فمعنى أن يبول طائر على إنسان هنا، أن ذلك نذير له بالخير، بأنه قد آن الأوان، كي يشتريكسوة جديدة.

في الصباح، تبدو لهم الشمس الشتوية، الموشاة بكثير من الذكريات، ذكريات أيام الدفء الماضية. في ليالي الشتاء، ينام الشبان على الأفران، يفترشون الأجولة الفارغة، ينامون عليها، أما الرجال المتزوجون، فينامون في القاعات الضيقة، في أحضان زوجاتهم اللاتي يشيع من أجسادهن البضة رائحة الدفء.

وفي عقل الفلاح البسيط، يؤثر الزمان بقدر ما يؤثر فيه المكان، بكل ما يطرأ عليه من تغيرات. فيبدو الليل في الشتاء، سقعان متعفرا، يختلط الرجال والأشجار والبيوت

والأشياء، فتبدو كلها وكأنها كتلة واحدة، تتلاشى المسافات، تذوب الأشياء في بعضها البعض.

الشهر والسماء الليلية في الشتاء، تبدو دائما معتمة، تنتشر القمر على صفحتها كتل السحاب الداكن، في منتصف العربي، يتذكر الناس في الضهرية، إنهم يشاهدون مشطورا، يبدو نصفه فقط.

وبعد أن تسح قطرات المطر، يشرق جزء من القمر، تبدو الأشياء مغسولة، لامعة، في آخر الليل، يسمعون صوت تساقط قطرات المياه، فتحمل إلى النفوس رائحة شتوية رطبة.

في أيام الشتاء الباردة، يكون صباحك مساك، وهو تعبير يقوله الناس، ابتداء من شهر كيهك، تدليلاً على قصر النهار الشديد في الشتاء. وبعد شروق يوم جديد، واتضاح معالمه، يقف الرجال في الساحة الواسعة أمام سيدي أحمد عبد الله النشابي، يخرج البخار من الأفواه مع الكلمات، يحددون طبيعة هذا اليوم، وهم يفركون أصابعهم، من شدة البرد.

ــ دا يوم من أيام العجوزة.

يؤكد الآخرون حديثه، يناقشونه.

ــ لا دا يوم من أيام الراعي.

ولا ينفقون على شيء مؤكد.

ــ يا عم دا يوم من أيام المعزة

وينصرف كل لحاله، وقد كون لنفسه فكرة محددة عن هذا اليوم، فكرة تناسبه هو شخصيا، وتناسب ظروفه، وفي الطريق إلى حقولهم والأرض مبلطة بفعل مياه المطر، يترنمون بجزء من موال حزين، عن بطل مات بالأمس القريب مقتولاً.

أيام العجوزة:

" وهي الأيام التي يشتد بردها، وتهطل أمطارها وتنتفخ الوجوه، وتحمر الأطراف، ويتجمد الهواء، من شدة البرد،

ــ نزلي حطب من على السطح يا بت.

ما إن تغيب الشمس، ويتوه نصف قرصها الأحمر تحت السحاب الداكن، حتى تصعد البنت إلى سطح المنزل، تحمل عيدان الحطب، ترميها في وسط الدار، فالليل الشتوي

طويل، نوع من الرحيل الدائم، وتحتاج العجوزة، في هدأة الليل إلى الحطب كي تشعله، وتدفئ الأبناء والأحفاد ترمي الحطب في لحظة المساء حتى لا يبتل من مياه المطر، فابتلال الحطب يجعل إشعاله أمرا صعبا، تحضر قوالح، ترسل من يحضر لها الشاي والسكر، والعجوزة تدرك الليالي التي مرت من هذا الشتاء بشكل مبهم، وبطريقة ساذجة كلما مرت ليلة من الليالي، خطت بإصبعها خطأ، ويكون الخط طوليا على سطح الفرن المثقل بالسناج، وتعد الخطوط كلما مرت بالفرن، وبهذه الخطوط تدرك عدد الليالي التي مرت (والناس يرتبطون بالليل أكثر من ارتباطهم بالنهار، لقصر اليوم، وطول مساحة الليل، وهذا يجعل وعيهم أكثر ارتباطًا بالليل).

ــ ولع راكية نار يا ابني.

في الليل تجلس العجوز في أحد أركان القاعة الضيقة، تلف قدميها بقطع قماش من ملابس قديمة، يجلس أحد الشباب، يحضر المنقد، يرص فيه القوالح والحطب بعناية شديدة، يبتعد بين الحين والحين كي يختبر مهارته في رص الحطب، تحكي العجوزة حكايا معادة، عن أيام العمر

الماضية، تقول قصصا عن رجال حقيقيين، عاشوا من العمر مائة عام ونصف، تترحم على الأيام التي كانت الأشياء فيها بسعر التراب، وتقسم في كل ليلة، بأغلظ الأيمان أن زواجها من جدهم الكبير، قد تكلف خمسة جنيهات فقط.

تسد المناور الضيقة في أعلى الحيطان، تغلق الباب بإحكام، تسد المسافات الخاليةبين الباب وأرض الغرفة بقوالب الطوب، تترنم العجوز وقد جف فيها ماء الحياة، بمقطع من أغنية قديمة، تغوص الذكريات في قاع عقلها، تبدو لهم أحيانا مريضة، يرقق المرض منظرها، يستخرج منها أعز ما فيها، يستنشقون رائحة الدفء مع الكلمات، غير أن جدتهم العجوز، في نهاية كل ليلة، والليل يخر عن آخره، تختم حكاياتها بحكاية محببة إلى نفسها، عندما تبدأ حكايتها، تسرع دقات القلب وتجري في وجهها الناصع البياض، حبات دم قانية، وتسرع الكلمات من شفتيها، تنزلق بسرعة مريعة، لا تقول الجدة العجوزة قبل حكاياتها، كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، بل تقسم في كل مرة، أن هذه الحكاية حدثت بالأمس فقط، في مصر أم الدنيا، وأن كل الناس في مصر لا تتحدث إلا عن هذه الحكاية. تقول العجوزة، إن

عنوان هذه الحكاية هو، حكاية الطفل الذي ولد في بر مصر وهو يتكلم.

تقول الجدة العجوزة.

حدث أن ولد طفل صغير، نزل هذا الطفل من بطن أمه بهي الطلعة، رائع القسمات، جميل التقاطيع، وكانت ولادته بلا متاعب، وبمجرد نزوله على الأرض، لم يكن محاطًا بدم ولا خلاص، طلب من القابلة، بصوت واضح الدبرات أن تذهب به إلى حاكم بر مصر لأمر هام، وذهبت به أمه التي كانت صحتها قوية، إلى حاكم البلاد، في مكتبه بمصر أم الدنيا، وكان الحاكم هناك، يقف على باب مكتبه، كأنه كان ينتظرها، وتقسم الجدة العجوزة أنه كان ينتظرها منذ ألوف السنين، وتكمل الجدة: أن الطفل الرضيع قال لحاكم بر مصر، إن هذه البلاد تنتظرها شدائد عظيمة، أيام قحط قد تطول، وتسوء حال الناس، ويرفع القرآن من صدور الرجال، وترتكب المعاصي جهارا، قال الطفل الرضيع، وقد تطول وقفة الأعداء، وفي نهاية كل الأمور، سوف يأتي الأمل، والحلم والرجاء، وكان أن كافأ حاكم البلاد الطفل الرضيع بمائة جنيه كاملة، أخرجها من جيبه، وأعطاها

للطفل، أخذها الطفل بيمناه، وكانت ورقة واحدة، خضراء اللون، لها رائحة متميزة، وأعطاها لأمه، ثم مات على الفور، وكانت الأم لا تزال واقفة أمام حاكم البر. فترحم الجميع عليه.

وتكمل العجوزة حكايتها:

غير أن الأيام صدقت نبوءة الطفل الرضيع، وعمت البلاد أوقات عصيبة، ولا تنهي العجوز حكايتها بتحقيق الأمنيات المعلقة في الفضاء الكابي، ولا بأمنيات الحياة السعيدة، ولا بالحديث عن التبات والنبات، والصبيان والبنات، بل تنتهي من قول ما عندها، ثم ترين على الجميع لحظات صمت ليلية ثقيلة الوطأة. وتزحف مقاطع الكلمات في نفوسهم، تنتشر في النفوس مثل أنين موجع.

أيام الراعي

" وهي الأيام التي يعلن صباحها عن حالتها، فهي إما أن تكون مشرقة صافية، وفي هذه الحالة يلعب الراعي، بعصاه الكرة الدح، في الحقول الواسعة، وإما أن تكون باردة، فيكسر الراعي عصاه، ويستدفئ بنارها، مزهوا بهزيمته ".

في الصباح، يحمل الراعي عصاه، وهي أثمن ما يملك، يركب مداسه الذي نظفته له زوجته، أو أكبر أبنائه من الطين العاق به بالليل، فيبدو منطفئ اللون، نظيفًا إلى حد ما من الطين، يلم ذيل جلبابه، يحمله في يده يرفع يده الأخرى، يضعها على طرف عصاه، يضع العصا على كتفه، يعلق يده الأخرى الخالية في طرف العصا الأخرى، محدثًا بذلك نوعا من التوازن، يسير في حواري الضهرية.

وعندما تشرق الشمس، يشعر أن انكساره الداخلي بدأ يتبخر في بطء، يدرك أن هناك دفئًا دسما ينتشر في أعماقه، دفء ربيعي يأتي قبل الأوان، ينظر خلفه، ما أن يرى ظله متعوجا على أرض الحارة، حتى تبتهج نفسه، تشرق الشمس، يدرك أنه سيخرج اليوم بالغنامات، يلعب الكرة الدح، يجري بعيدا كي يحضرها من الحقول الواسعة، عندما يرميها خصمه بعيدا نكاية فيه، تدوس قدماه الحافيتان على الأرض الرخوة المليئة الموشاة برائحة الخصب، يتفادى، وهو يمشي، في حقول البرسيم النابت حديثًا، جذور عيدان الذرة المقطوعة قبل مجيء الشتاء.

وقت الظهير، ينام عرباوي على ظهره في العراء، وشمس الشتاء شفاء، تستريح في عينيه، وهو في نومته هذه، زرقة السماء الغامقة، يرى في نومته أن زرقة السماء الشتوية، زرقة خاصة، لها لون معين، يلعب السيجة بجوار الساقية الكبيرة، ينتظر، وهو يلعب السيجة، مجيء الليل، يمني نفسه، بليال دافئة مترعة بالشوق والوصال، تسرح عيناه في الحقول المترامية الأطراف، يحتوي الخضرة الدافئة في نفسه.

في الشتاء، تكثر زراعة البقول، يزرع فيه القمح والشعير والبرسيم، وأيام الشتاء، أيام فقيرة، ولا تدري من أين يأتي الناس بالنقود هنا، غير أنهم يجرون الحياة جرا بطيئًا تتسرب كافة الأشياء، تأتي النقود بطريقة غامضة، تذوب في زحمة الحياة، كما جاءت.

مع الراعي فتى صغير، يذهب وقت الظهيرة إلى الضهرية يحضر طعامه من المنزل، يحضر مياه معين لعمل الشاي والسكر والمعسل يقف الفتى طيلة النهار مع الغنمات، يمنعها من أكل مزروعات خلق الله. فالغنمات لا ترعى إلا حول المصارف والقنوات وفي الأرض البور، أو الأراضي

التي لم تزرع بعد. والراعي يقضي بقية يومه في غزل صوف الغنم، بمغزل صغير في يده، يصنع من الصوف طواقي ملونة، يبيعها للناس، وهذا العمل أحب إلى نفسه من أي شيء آخر.

والراعي ليس فلاحا، وهو من أصل عربي، ويتكلم بلهجة مختلفة عن حديث الناس هنا، ويحشر في كلماته ألفاظًا عربية، وعدة أبيات من الشعر يغنيها في لحظة المساء، ويقول الناس، أنه نازح من ناحية الصحراء الغربية، وأنه يتحدث مع جماعته في بيته البسيط بلغة لا يفهمها أحد، والراعي يميزه عن الناس جملة أشياء، بلغته، فهي من النوع السوقي، وهي خفيفة ورخيصة الثمن، وبعض عادات منزلية خاصة به، والناس ينادونه بعرباوي، وهي صفة أكثر منها اسما، ولكن الناس، لكثرة مناداته بها نسوا اسمه الأصلي، كأنه لقب حديدي ثقيل ينوء به، في ملامحه انكسار قديم، وبين عينيه شيء ما يبحث عنه، ويتصور في كل الأوقات، أن شيئًا ما ينقصه، وأن في حياته جزءا ركب بطريق خاطئ، ويقول لجماعته في الليالي الشتوية، عن حياته، أحلامه، أهله هناك، عند الأفق البعيد، ويحن بأن يجتمع

الشمل ذات يوم، ولكن الأوان لم يأن بعد، وفي ليالي الشتاء، يسهر عرباوي، بيده مغزله الصغير يغزل من أيامه الجديبة من سأمه وحزنه، شيئًا ما غير محدد، يجسد به حلمه الباهت، أمله البسيط، لكن الحياة تمضي قربانًا للحلم الكبير، وتوغل الأشياء في القدم، وتذوي أعز الذكريات.

وفي الأيام المعطرة، يقرأ عرباوي حبات المطر الباردة، يقرأ ما كتب عليها، في الصباح يقف عرباوي أمام باب داره، وكان عرباوي يعيش في أول أيامه في الضهرية، في خيمة صغيرة منصوبة عند مدخل البلدة، ولكنه بعد ذلك، ولأسباب غير مفهومة، بني بيتًا صغيرا، وعاش فيه مع أولاده، تتوه نظراته في ضباب الشتاء، يتلقى بكفيه، قطرات المطر الباردة، يدرك أن الغنمات لن تخرج هذا اليوم إلى الحقول، أحيانًا، تفاجئه وهو في الحقل، الأمطار، يقفز من رقدته، يلم أشياءه من على الأرض. المغزل الطاقية، مداسه، شلة الصوف، يجري ناحية الغنمات، يسوقها بعصاه، يدخلها في أقرب دوار.

وفي كل يوم، في لحظة المساء المسربلة بالضباب،

الموشاة بالأسرار الشتوية، يلم عرباوي غنماته، بيدها. يسير

فتاه الصغير أمام الغنم، يسير عرباوي خلفها، يظل أمله معلقًا في الفضاء الكابي، وهو يرمي السلام على الجالسين على المصاطب، أن لكل شيء نهايته، وأن حلمه لا بد وأن يتحقق مع الربيع القادم.

أيام الماعز:

" وهي الأيام خيرة من الشتاء، وفيها تشرق الشمس الطرية، وينتشر الدفء، وتبدأ الضهرية في الاستعداد لمجيء الربيع المقبل ".

في أيام الشتاء تُشرق الشمس، عشر ساعات فقط. ــ بكرة الصبح، تشرق الشمس، تأخذ الغنمات وتسرح بهم.

ــ إن شاء الله.

ــ بس يا ريت تطلع الشمس. في الصباح، يجلس ورداني أمام الدوار، تأتي مأمأة الماعز من داخل الدوار مرعوشة باردة، يشير بأطراف أصابعه الباردة لحد الاحمرار، ناحية الشرق. أمامه على الأرض، حفرة فيها نار، فوق النار براد شاي، وحتتين

بطاطس، يشويهما كي يفطر بهما، يرمي نظراته ناحية الشرق، تبدو السماء عند نقطة التقائها بالأرض من بعيد، نحاسية اللون، حمراء. ولكن الشمس حتى الآن لم تشرق، يقوم ورداني، يدخل الزريبة، يعد الغنمات. يتأكد أن الليل قد مر بسلام. يحلب الغنمات التي تدر اللبن. يضع لبنها في شالية كبيرة تمهيدا لإرساله إلى المنزل حيث يصنع منه الجبن الضاني. يعود إلى جلسته مرة أخرى، تبدو الأرض من حوله، بعد أيام الشتاء، رصاصية اللون، تبدو له مبلطة كأرض البندر، ولا توجد عليها ذرة من التراب، أعالي الحيطان باشت من مياه المطر، عيدان الحطب، فوق المنازل، تتساقط منها قطرات المطر، تبدو الضهرية، مغسولة بمياه المطر. يخرج من براد الشاي، بخار أبيض، أليف محبب إلى نفسه، ينفخ النار بفمه، يحمر وجهه، تتساقط حبات عرق نادرة على النار، يستخرج حبة بطاطس، يقشرها، يلفح وجهه بخار ساخن، يأكلها ببطء، يرشف الشاي الأسود، يدخن سيجارة رفيعة. يستدير ناحية الشرق. غير أن الشمس لم تشرق بعد.

في الأيام الأخيرة من الشتاء، تشرق الشمس كل يوم، حتى أن الدنيا تمطر أحيانًا والشمس مشرقة، وإذا نظرت باتجاه الشمس، بدت حبات المطر كبيرة الحجم. وبعد شروق الشمس، يأتي الراعي ومعه الفتى الصغير، يتسلم الغنمات من الخفير، كي يسرح بها طول النهار بين الحقول الواسعة الواقعة في زمام الضهرية.

تبدو الحقول في أيام الشتاء خالية، فهي أيام كسولة فقيرة، والفلاح لا يذهب إلى الحقل كل يوم في الشتاء، والنهار الشتوي كما يقول الناس، فركة كعب، ومضة عين قصيرة الأمد، ولا يعود الفلاح إلى منزله لحظة القيلولة، ولا توجد ساعة قيلولة فالشمس لينة، والجلوس تحت أشعتها عادة محببة.

في أيام المعزة، يقل المطر، وتصبح هبات النسيم، ذكرى قديمة، ذاوية في الصدور، وتكتسب الأرض لونها الجيري بفعل الجفاف، وشيئًا فشيئًا يخلع الناس ملابسهم الثقيلة، ويسري في الأعطاف دفء جديد، وذات يوم، ينسكب ضوء الشمس كأنه وشاح يلف الأشياء بداخله، فيدرك الناس أن الربيع على الأبواب، غير أن ورداني يدرك أن شتاء هذا

العام طويل وإنه لم يخزن في الأعماق منه ذكريات من دفء الصيف في الليل يدرك أنه مقرور، تقف النيران عاجزة أمام البرد الثلجي في الأعماق. يترحم على أيام زمان، أيام كان الرجال يستحمون في مياه الترعة والدنيا ترخ، يدرك ورداني أن زمنه، زمن ضئيل الحجم، قزم، يهمس لنفسه، أن مصر لم تر من قبل شتاء مثل هذا الشتاء.

وفي كل مساء، عندما تعود الغنمات مع الراعي، يقترب منها، واحدة واحدة. يتشمم صوفها الطري، قد يكون هناك، في مكان ما من الضهرية، ومضة دفئ صغيرة، يكون بارداً لحد الموت. يدرك ورداني في كل ليلة. أن شتاء هذا العام هو نهاية كل شيء.

وحينما يهزه البرد في أعماق الليل، يدرك أنه مريض، وأنه سيموت هنا بمفرد، يموت حتى قبل أن تأتي لفحة برد أخرى. الشتاء في بر مصر هذا العام، له رائحة، رائحة محددة، لم يشمها من قبل. في هذه اللحظة، تستسلم قريته، الضهرية لليل شتوي كالكابوس، تغلق الأبواب، تتسرب منها رائحة دفء باهتة، يعاني ورداني من أشياء لا يدري كيف يعبر عنها بالكلمات، تبدو الضهرية وقد اختلطت

بالليل. يبدو كل شيء بلون ترابي. تعاني البلد من انكسار داخلي. يتساءل ورداني، وهو يرشف الشاي ويحن إلى زوجته، ويترحم على أيام مضت، أما آن لهذا الشتاء نهاية؟.

وفي كل صباح، يشرئب ورداني، ينظر في كل ناحية، تشق الفضاء الأزرق المغسول أشجار جرداء تبدو لعين ورداني كتصاوير الرعب. تنسال في أعماقه قطرات دمع دافئة. يحس ورداني بثوب الدفء في نفسه. يدرك أن الربيع على الأبواب. تغرس نظرات ورداني في الأفق البعيد. ترتمي عند نقطة التقاء الأرض بالسماء، تبحث عن شيء محدد. طائر يعود من ناحية الجنوب حاملاً معه الخلاص مقدما للناس فدية الشتاء الماضي، ولا تعود الطيور المهاجرة، أبدا يندلح السكون الشتوي في نفس ورداني.

وفي كل صباح تتحول ظلمة الليل إلى لون رمادي كاب، تتميز المرئيات تحت قطرات الضوء الفضية، يتصور ورداني أنه قد تصل الطيور المهاجرة. نافشة ريشها، من مكان ما، من بلاد الجنوب، جنوب وادي النيل، غير أن الأيام تؤكد له أن هذا الشتاء أبدي وأنه قد يمر على مصر سنوات وسنوات قبل أن يأتي الربيع.

يذهب ورداني إلى منزله، يحنط أحلامه، يحفظها في صندوق قديم وفي الليل، تعود إليه رعشة القلب، ووضمة الحياة وسط الليالي الباردة.

" ٢ "

كان شتاء العام الماضي غريب الخلقة لم تر الضهرية مثله من قبل، فقد اشتد البرد، حتى مات الزرع، وتجمدت الأطراف، وماتت الأجنة في الأرحام وأصاب الناس فزع شديد، ولكن السماء لم تمطر قطرة واحدة، فاجتمع الجفاف والبرد في وقت واحد معا، وقال الناس إن هذه علامة على غضب الله، فسقوط المطر يعني الخير، ورائحة اختمار الأرض بعد نزول المطر، رائحة دافئة وخصبة، وقد تسرب هذا الشتاء ببطء شديد وانتظر الناس، ولو سقوط قطرة واحدة. وقفوا في لحظة المساء، ووقت انبلاج الفجر على صفحة المساء، وتمضي الأيام، وتأتي الليالي، وهم واقفون ينظرون ناحية السماء، يرفعون أكفهم، تستدير عيونهم في أركان الكون الأربعة. وعندما كان يشاهد أحدهم، في الصباح الباكر، أثناء عودته من المسجد، بعد

صلاة الفجر، بركة مياه صغيرة، كان يتصور أنها مياه مطر متجمعة هنا أثناء الليل يقف في مكانه، يقعى، يغمس إصبعه في المياه، يقربها من فمه، يتشممها، يقترب أكثر وأكثر، يطالعه خيال وجهه في بركة المياه ينكسر، يضم إليه آخرون وبعضهم يتمتم بختمة الصلاة، يناقشون الأمر فيمنا بينهم، يختلفون، يتأكدون في نهاية الأمر، أنها مياه دلقت في الصباح، وعندما يصلون إلى هذه النتيجة يدركون أن بالمياه فقاعات صابون لم يشاهدوها من قبل وينصرفون كل إلى منزله والسماء صافية، نوع من الصفاء العذب الفارغ والجفاف البارد لا ينبت في الأعماق سوى العقم، وفي المنازل الدافئة يؤكد كلٍ لنفسه، في عبارات مفككة أن شتاء هذا العام شتاء كاذب.

" حكاية لم تروها الجدة العجوز، لي أي ليلة من ليالي الشتاء في هذا العام ".

قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً

ــيا عباد الله.

ــيا أهالي البلد.

وينطلق المنادي، وقت الغروب في حواري البلد، والخبر، أن الأدهم، سيقوم بحراسة حقول البطيخ، خمسين فدانًا بالتمام والكمال، من الليلة ــ وهو يعلن لكافة عموم أهالي البلد والبلاد الأخرى ــ أن من يقترب من حقول البطيخ، في الليل أو في النهار، وتسول له نفسه أي شيء.

ــ والنفس أمارة بالسوء.

ستكون حياته هي الثمن الوحيد.

والحاضر يعلن الغائب.

* * *

ثلاث يقسم الأدهم بالله العظيم، وبأيمان المسلمين، وبقبر مرة سيد الشهداء، وبمقام سيد أحمد الذكيري، وبالطلاق مرات من زوجته الشابة، أن ما حدث، يحدث له لأول في حياته الطويلة. وأنه لا يدري حتى الآن سر حدوثه، وأنه ينكش الأرض ويسائل الليل ويرمي على نجوم السماء

الحكايا بحثًا عن السر، غير أنه لم يصل إلى شيء ما. احتار أدهم. ذهب إلى المشايخ، قرأ الودع، فتح الكتاب، حدق بعيون مغسولة بالدموع في قبور أولياء الله الصالحين، صلى. ضرع بعيون مشربة الدموع لأهل الطريق أن يعرف السر، ولكن كل محاولاته ذهبت هباء.

الليل يقترب، والأدهم يقف أمام الخص، يمتد أمامه حقل البطيخ طويلاً، قشرة لينة من الخضر الرصاصية، تظهر بينها مساحات سوداء من الأرض، والقنوات التي ابيضت بفعل الجفاف. في كتف الأدهم بندقيته الميزر، في يده الأخرى عصاه الخيرزان، والمساء معلق في الأفق البعيد، نسمات الليل الطرية تهب على الأدهم، تداعبه، تنعشه، تحمل له الأمل بعد يوم حار، على يمينه حقل ذرة، وعلى يساره حقل آخر، وعيدان الذرة طويلة، تبدو له في الظلام تحرس الليل، عينا الأدهم تمسحان الحقل، وهو بين الذرة حقل كشريط صغير. وعندما تظلم الدنيا، ولا تستطيع حتى أن ترى كفك، وتبرق النجوم في سماء ليلية سوداء، يعيش الأدهم أحلى ذكرياته، وتجري في خدوده دماء شبابية حمراء، وتنسال في أعماقه دموع دافئة.

في الزمان القديم، وكانت الدنيا غير الدنيا، فعل الأدهم كل شيء، كان شيخًا للخفراء، حرس حتى الهواء داخل القاعات المغلقة في الليل، غير أنه قنع الآن بما آلت إليه حالته، ورضي بما قسم له، وقال لنفسه، ذات مساء، يا الله حسن الختام، صلى، وصام، وحمل مسبحة يختم بها الصلاة، وقنع أخيرا بأن ينام تحت سقف واطئ، وبين جدران أربعة، وأن يعيش في بيت، وأن يرضى بزوجة تقاسمه الحياة، وبأن يموت ككل الناس، على فراش المرض، وقال عنه شاب متعلم متفلسف، من أهل البلد " إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ".

كانت الأيام، أياما عصيبة.

* * *

في هذا المساء، السماء مشربة بلون رصاصي، وحقول الذرة، يتماوج عليها، مع قدوم المساء، لون أخضر، غير أنها خضرة رصاصية، وأمام الخص يقف الأدهم، وتحت قدميه راكية يشعل فيها النار بالليل، حول الراكية عيدان الحطب، اشتعلت أجزاء منها، حول الخص من الجهات الأربع، قوالح عيدان ذرة، شويت خضراء، وقشر

بطيخ، ومن داخل الخص، قش أرز مفروش على الأرض، وعدة الشاي والجوزة، أما الشاي والسكر والمعسل والأكل فكله موضوع داخل منديل محلاوي كبير، معلق في سقف الخص من المنتصف. يتمدد المساء، على صفحة السماء في ليونة، والأدهم يقف، يلوك المعاني في ذهنه، وعندما تصل الأمور إلى تصور حالته، فإن قلبه ينفطر من شدة الحزن يتمدد، يحتل كل تجويف الصدر. وفي الليالي الطوال، تسح الدموع بداخله، يترحم على أيام زمان، ويبصق، ويكون الليل على آخره، على هذه الأيام.

منذ عشرة أيام، حضر إلى الأدهم، رجل يعرفه:

ـــ الحاج ورداني عايزاك يا سي الأدهم

ـــ خير، عايزني ليه.

ـــ والله ما أعرف.

ـــ طيب، جاي له المغربية.

وفي المساء، في المغربية، لبس الأدهم جلبابه الصوف الغامق، ركب مداسه، أمسك بعصاه الخيزران، التي شهدت أيامه الحقيقية، ذهب إلى دوار الحاج ورداني، والحاج ورداني أغنى رجال الناحية، يملك كل شيء، حتى الدم في

عروق الرجال، النافرة على جلودهم الصدئة، وحتى الحزن في أعماق قلوبهم، في الدوار سأل عليه، قالوا إنه ذهب إلى حقول البطيخ، بحري البلد، للحظة، تصور الأدهم، أن في الموضوع إهانة له، غضب، استرجع في ذهنه أيام أن كان اسمه يخيف حتى الأجنة في أرحام الأمهات، غير أن أحدهم أخبره، أن الحاج ورداني ينتظره في حقول البطيخ.

وفي الطريق إلى حقول البطيخ، كان الليل والظلام والسماء والنجوم، وموال حزين تبعثره الرياح بين جنبات الحقول الواسعة، يحمل إلى الأدهم إحساسا أملسا، بأن هناك أياما لم يعشها بعد. الأدهم يسير في الطريق متمهلا في سيره، وفي وسط الحقول، والصمت الليلي، وجد نفسه يتغنى بجزء من قصة حب قديمة، عاشها أيام أن كان شابا صغيرا.

ـ السلام عليكم.

في الحقل، وجد الحاج ورداني، يجلس بمفرده، أمام خص صغير.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تبادلا السؤال عن الصحة والحال، وما تفعله الأيام عادة بالناس، رانت عليهما فترة صمت ثقيلة، كانت بيننا

عداوة يا حاج ورداني في الزمان الأول، وقلت لي ذات مساء في الباحة الواسعة أمام المسجد، يا نا يا أنت يا أدهم، كنت شيخا للخفراء، وقلت لي: البلد ما تساعناش إحنا الاثنين، وتركتك يومها، لم يكن عندي الوقت لك، ولا لغيرك، وها أنت يا حاج، بعد ذلك الزمان، تحضرني هنا، أفصح عما وراءك، ما حضرت إلا تحديا لك، ولكي أسمعك صوتي، أنا الأدهم.

استطالت فترة الصمت بينهما، وكان الأدهم يدرك. أن الحاج ورداني لم يرسل في طلبه للسؤال عن الصحة والحال:

ــ خير يا حاج.

ــ إن شاء الله كله خير يا سبع الليل.

تحدق الكلمات في بطولة الأيام المفقودة، يظهر بريق عيني الأدهم في الليل، يمر بيده على صدره العريض، يستريح في جلسته، يمسك عصاه الخيزران، يرى بعينيه، رغم الظلام، نقاط الدم العالقة بها، وخدشات رصاص البنادق، وكلها ذكريات محفورة في حبة القلب.

تمتد بينهما، عبر الحديث، موضوعات قديمة، ذكريات مشتركة، تقيم الذكريات حبلاً من الحب والكراهية، يلفان يدوران، غير أن الحاج ورداني، في آخر الأمر، طرق الموضوع الرئيسي، والموضوع ببساطة هو أن حقول البطيخ في هذا العام، ومساحتها خمسون فدانًا، سرقت أكثر من مرة، رغم تغيير الخفراء كل ثلاث ليال ورغم أن الحاج ورداني، يبقى فيها أحيانا بنفسه حتى منتصف الليل، قال الحاج ورداني إن رجال هذا الزمان ليسوا رجالاً، فهو زمن عقيم بخيل، قال الحاج ورداني إنه لا يهمه البطيخ، ولا حتى الحقل نفسه، فالمهم سمعته هو، وأن يقلع قطنه، من يدري، فقد يسرق دواره، قال الحاج ورداني إنه يجد حرجا في إيضاح طلبه من الأدهم، فهو من ناحية يخشى أن يطلب منه حراسة الحقول، خوفًا من أن يسيء الأدهم فهمه، وهو يعرف ماضيه، ويحترمه ويحبه، وتطول مساحات الصمت، وتنتشر الكلمات في الصدور كأنين موجع، ويجد الحاج ورداني نفسه عاجزا عن إيضاح ما يريد إيضاحه، يحرك يديه دلالة التسليم، ينبش الأرض تحته،

ــ يعني بختصار كذا، عايزني أحرس لك البطيخ.

قال الأدهم.

ــ لا مش قصدي.

يوضح الحاج ورداني ما يدور في ذهنه، ما يقصده هو أن يحرس الأدهم حقول البطيخ، وأن يأخذ الأدهم ربع ثمن كل بطيخة تنجو من السرقة في الليالي المقبلة، يضحك الأدهم، يدرك أنه قد هان لدرجة أن يعمل حارسا لحقول البطيخ، غير أنه تساءل، والظلام مساحات تحيط به، من يكون سارق البطيخ؟ إنه يعرف جميع أبناء الليل في الناحية كلها، استعرضهم بذهنه، حتى الذين ينامون الآن خلف الجدران في السجون الضيقة.

ــطيب أنا موافق..

كانت في الموضوع إثارة، ليال آتية راعشة بالنشوة والعمل، تذكر مصمصات الشفاه بعد مروره على الرجال، قولهم إن النار لا تخلف بعدها سوى الرماد، وكلمات الناس عنه، وكأنه قد انتهى.

ــنقرأ الفاتحة يا سبع الليل.

ــبسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله رب العالمين.

تمتمات شفاههما وهما يقرآن الفاتحة، يداهما متشابكتان، الأدهم يعيش نشوة أيام البكارة الأولى، وبعد قراءة الفاتحة، قبل كل منهما يديه، وقام الحاج ورداني، دخل الخص، ومن سقفه فك منديلاً محلاويا كبيرا، أخرج من داخله رغيف خبز وقليلاً من الملح.

ــ علشان يبقى عيش وملح.

أكلا معًا خبزا جافا كالأيام من حولهما، وبعد الأكل شربا.

ــ طيب السلامو عليكو بقى يا حاج.

يسير الأدهم في الطريق إلى البلد، في الليلة المقبلة سيبدأ حراسته، وكان الأدهم يتصور أن ما فعله الليلة هوانًا ما بعده هوان، وأن في أعماقه إحساسا سائلاً بالحزن، له طعم حبات الملح تحت الأضراس، ولكن ما ينتظره في الأيام المقبلة من ليالٍ موشاة برائحة الذكريات، حمل إليه العزاء. وفي الليل، لم يتسرب إلى نفس الأدهم الشك، في أنه قادر على حراسة حقول البطيخ، ولم يكن يقلل من قيمة الأمر في نظره إلا من حقول البطيخ كانت صغيرة، لا تشرفه أمام أهل البلد.

وعندما اقترب من بلدته، وشاهدها تغوص في ليل أسود، والسماء تنسحب عليها بنجومها المتلألئة، أدرك أنه يقف الآن، في نفس موضعه الذي اعتاد أن يقف فيه منذ سنوات، وينظر إلى البلد في أعماق الليل، وكان يحاول أن يحدد موقع منزلهم، فهو في منتصف البلد، بين مئذنة الجامع ودكر النخل الكبير. وفي مرة، كان يخترق الظلام ويبحث، ويمد يده التي لا يراها، قائلاً لنفسه، إن منزلهم هنا، ويتصور بعين الخيال أمه وأباه، وحجرته الصغيرة في آخر منزلهم.

ما كان قاتلاً، وما تلوثت يداه بدم أحد، وما رفع بندقيته الميزر في وجه أحد الناس، بل كان بطلاً، سماه الناس، سبع الليل، كان شيخًا للخفراء، صال وجال، داس على الأرض بقدميه، ونطح السماء برأسه، سافر وعاد، أحبه كل الناس، وقنع من الدنيا بأقل من القليل.

فجأة، يختفي الأدهم وكان ذلك في صباه، لا تصل إلى البلد سوى حكايات عنه، قالوا غوته جنية ونزلت به سابع أرض، وأنه لم يخرج من عندها أبدا، وقال قائل إن الأدهم قال له إنه راحل إلى بلاد أخرى، بعيدة نائية. وأقاموا

له مأتما في القلوب، وأقسم واحد منهم، أنه سمع عنه في الصعيد، وقال آخر، إنه شاهده في بلاد القتال.

ترحموا عليه. وقالوا: فينك يا أدهم.

وكان ذلك في قديم الزمان.

في الصباح، قام الأدهم من نومه مبكرا، استحم، وقف في وسط الطشت النحاسي، خلف الفرن في حجرة نومه، ودلق المياه الباردة على جسمه العاري من كوز صغير في يده، دعك جسمه جيدا، أدرك أن شبابه يعود إليه هذا الصباح، وكانت زوجته تجلس أمامه على الحصيرة، تنز منها قطرات المياه، وتطل من عينيها نظرة مفعمة بالجسارة، لبس ملابسه، خرج إلى الجامع صلى، عاد إلى منزله، أخذ من زوجته مفتاح حجرة المعاش، وفي الحجرة، فتش عن أشيائه القديمة، وجد ثلاث بنادق، وفي المنتصف البندقية الميزر الأصلية، لفها في خرقة قديمة، وضعها في مكانها، أخذ إحدى البندقيتين، وعصاه، وخرج، أخبر زوجته بما ينوي عليه، وطلب منها أشياء معينة ووصاها أن تغلق الباب على نفسها جيدا بالليل.

وفي الطريق إلى الحقل، راح الأدهم يضرب الأرض بقدميه بثقة، واستنشق هواء الصباح بملء رئتيه، وأحس أن صدره يتسع، وأنه يحتوي الحقل والبلد بداخله، وأدرك أنه يعود إلى العشرين من عمره.

في الحقول تسلم الخص والبطيخ والأرض، خلع جلبابه ولبدته وبلغته ووضعهم داخل الخص، لف حول وسطه تكة من الصوف، وارتدى فوق رأسه طاقية قديمة، ودار حول حقول البطيخ مرتين. وعاش كل شيء بنفسه، وعندما اطمأن إلى كل شيء، عاد إلى الخص، فأعاد تنظيمه وفرش قليلاً من قش الأرز على الأرض، وجلس عليه.

وأمام عينيه، كانت زرقة السماء الصافية تختلط بخضرة النباتات، وكانت حرارة الشمس تولد في النفس إحساسا رماديا بالحرارة، وأخذ الأدهم يمر على حقول البطيخ، خطًا خطًا.

وفي هذا اليوم، عاد كل أهل البلد، وكل منهم لا يتصور أن ما حدث ممكن الحدوث، كل منهم يحكي لنفسه ما شاهده، ويرتب الكلمات في ذهنه وبعدها على طرف لسانه، كي يحكيها لأول فرد يقابله، يحكي كيف قبل الأدهم، أن

يحرس زراعة الحاج ورداني، مع ما كان بينهما من خصومات في الزمان الأول.

الأدهم فيا لحقل، يقوم بين الحين والآخر، يقف، يستدير ناحية الغرب، يقيس ظله، كي يحسب كم بقى من الوقت على مجيء الليل، وفي الليلة الأولى، كانت الذكريات والرهبة ورعشة القلب، وكان الظلام دامسا، جلس الأدهم أمام الخص، كسر بطيخة كبيرة، لم يستعمل في ذلك سكينًا، وضع البطيخة على قليل من القش، ضربها بكلوة يده في منتصفها، قسمها نصفين، وراح يأكل ببطء، وفي أعماق الليل، تناهى إلى سمعه صرير الصراصير ونقيق الضفادع، وصوت ساقية مشروخ تدور على البعد، وغناء كروان حزين، أصوات مستقطرة من أعماق الصمت الليلي، تذكره بالأيام الخوالي، أيام السفر إلى جهة غير معلومة، وبلا أمل في الوصول، راح الأدهم يحدق في الظلام، لقد تعلم، أن يلصق جبهته بالأرض، وينظر في الجهات الأربع، وبذلك يستطيع أن يسمع وأن يرى أي دبيب على الأرض. وعندما انتشرت زرقة خفيفة على سطح السماء، فرح الأدهم، لقد مرت الليلة الأولى بسلام، وجرى الأدهم رغم كبر سنه، قطع

الحقول جيئة وذهابا، غير أنه وهو في طريق عودته إلى الخص، اكتشف أن هناك بطيخة كبيرة، كانت خلف الخص، قد قطعت، ما أدهشه لحد الفزع، البطيخة كانت قريبة منه، وأنه كان يجلس هنا طوال الليل، وتساءل الأدهم، هل وهنت أعصابه من كثرة الاطمئنان؟ هل فقد رجولته خلال أيام الدعة والهدوء الماضية؟ وأدرك، في هذا الصباح، أن حقول البطيخ هذه المساحة من الأرض الممتدة أمامه، أصبحت مجموعة من الجراح في قلبه، وأن قلبه ينزف دما وأنه لو جلس، وفحص الأرض تحت قدميه بعناية، لوجد نقاط الدم قطرة، قطرة على الأرض، تفوح برائحة خيبة الأمل والمرارة.

* * *

ويعود الأدهم، رجلاً مكتمل الرجولة، وتكون الحياة في البلد قد تغيرت، ولد أطفال صغار، أصبحوا صبية يلعبون في الحارات، أقعد المرضى رجالاً كانوا ملء الحياة، مات الأحباء، أصبحوا حطاما جافة تحت الأرض. وحتى الأدهم، كانت تطل من عينيه نظرة مستكنة، تشي بالرغبة في

الاستقرار، وعندما عمل خفيرا نظاميا وقف في الدرك، قال الناس يومها: ليتولانا الله برحمته.

* * *

في الصباح ذهب الأدهم إلى زوجته، هشت إليه، سلمت عليه، قبلت يديه، فرشت له الحصيرة في وسط الدار، أسرعت إلى حجرة المعاش، أوقفها بإشارة من يده، نظرت إليه بتساؤل، رفع إليها عينين مترعتين بخيبة الأمل، وتشيان بذبول الحياة فيهما، لم يتكلم، عادت إليه، جلست بجواره، مسحت بيدها الناعمة على جبهته الدافئة، كرهها لحد الرغبة في موتها، عندما شم رائحة الدفء التي تنبعث منها، اقتربت منه، أحس أن قلبه يرقص رقصة الحياة الأخيرة، خيل إليه، أنه يسمع صوت تنفسه، وأنه يحس بدقات القلب على جدران صدره الداخلي.

ـــ أنت ما لك يا سي الأدهم؟

مساحة البياض في عينيه تتسع، حبات عرق باردة تنسال على جبهته، زوجته تحضر مخدة، تضعها تحت رأسه.

ـــ يا ندامة يا سي الأدهم، دا أنت عيان خالِص.

أمسك بها، جلست بجواره، تفرس في وجهها النظر، إيه يا متاهة الرغبة المجنونة؟ يا مرتع الأسى والحزن والأشواق في ليالي القهر والهوان؟ أكرهك لحد الرغبة في قتلك، وأحبك كما الحياة. ود أن يقول لها أن حقل البطيخ سرق ليلة الأمس، رغم أنه سهر حتى الصباح، ولكنه لم يتكلم، نظرت إليه، ابتسمت، خيل إيه أن ابتسامتها رثاء له، وأنها تشفق عليه، فتمساك وجلس، وعندما همست بحروف ممطوطة، لم يسمعها جيدا، تصور أنها تقول، إن رجله والقبر، وأن ساعاته معدودة. وليلتها تجمع الخفراء، والعمدة، والمأمور، وحاولوا إخراج زهران من وسط حدائق الليمون، ولكنه رد عليهم بطلقات مجنونة، وتأزم الموقف، ونظر العمدة، وتقدمت، صمت مهيب، أمسكت بمكبر الصوت، قلت من خلاله، سلم نفسك يا زهران، قلت له: أنا الأدهم يا زهران، الأدهم شيخ الخفر، وبعدها ران صمت على الجميع، وبرز زهران من وسط أشجار الليمون، رافعا سلاحه، مستسلما، نظر إلى المأمور، ربت على كتفي، لا بطل يا شيخ الخفر.

ـــ كانت أيام.

* * *

أحبها وكان مرتبّه جنيهين ونصف جنيه، غير أن والدها زوجها لرجل آخر من بلاد بعيدة. وفي الليل، كان الأدهم يشعر برغبة في البكاء. كانت ترتعش الرؤى في داخله، تهتز، يدب النمل في شرايين القلب. سافرت، أما الأدهم، فقد كفن الحب، دفنه في حبة القلب، انتظارا لمجيء ربيع تتحقق فيه الأحلام المدفونة في الأعماق.

* * *

مرت ليلتان بدون سرقة، لم يفرح الأدهم، ولم يتصور أن الأمر مر بسلام، وصدق حدسه، ففي الليلة الرابعة سرق البطيخ، عاين مكان السرقة، وجد آثار أقدام، تابعها، ولكن آثار الأقدام اختفت، عاد إلى الخص مهموما،أحس أن الأرض والسماء وحقول الذرة سجن بغيض، وأنه يختنق، وأنه قد يموت بعد قليل.

ـــ مش ممكن.

هبّ الأدهم من جلسته، قرر أن يواجه الأمر مهما كان، عاد إلى منزله، في حجرته استحم جيدا، حكّ نفسه، وبعد الاستحمام لبس جلبابه الصوفي الغامق، ولبس بدلته،

ومن حجرة المعاش أحضر البندقية الميزر الأصلية، وسبغ شعر رأسه وشاربه الغزير بلون أسود فاحم، وعند الحلاق، حلق ذقنه جيداً وخرج من البلد، وكان حزيناً، كان يدرك أن سرقة البطيخ إهانة موجهة له شخصيا، وحاول أن يعزي نفسه، فأسرع في سيره، ومر بيده على شاربه، وحاول أو يوهم نفسه بأنه يولد من جديد، وغمغم، عفا الله عما سلف ".

وأقسم أنه لو سرقت بعد اليوم قشرة بطيخ واحدة من الحقل، لشنق نفسه في الصباح الباكر، إنه الأدهم ومجرد وجوده، تحركه، ذهابه إلى الحقل، جلسته على المصطبة ساعة المغربية، يعني بالنسبة لكل الناس هنا، حكاية مبللة بالوجد، تؤنس وحشة الساهرين في الليل، وما زال بالنسبة لكل الناس هنا، رجلاً حقيقيا، من زمان عظيم مضى، مضى تماما، ولم تبق منه سوى ذكريات قديمة، عفى عليها النسيان.

* * *

وعين الأدهم شيخًا للخفراء، رغم صغر سنه، وأصبح الأدهم المنصف وسط الظالمين، والد اليتيم، ورجل الأرمل، وراعي المطلقة، وأب من لا أب له، وفي رحابة

الليل، ووسط صمت الحقول، وخلف ستر الظلام، كانت حكايات الناس عنه، هي الأمل والبلسم والخلاص.

يبدو الليل مفعما بالأسى، مترعا بالحزن والجنون، في تلك الليلة كان نور القمر الفضي ينسكب على الحقول كأنه وشاح. وبدت حقول البطيخ واسعة، تنسدل عليها سماء في لون الفضة، والأدهم يقف كما هو في كل ليلة، من هناك؟ فجأة، يقبلون، ينتشرون كالجراد في أيام الوباء، يقشعر البدن، يقف شعر الرأس، يجف الحلق، تسري في الجسد برودة كبرودة الموت، يبعث الخوف الليلي قشعريرة ثلجية في أعماقه، يرفع قدميه، يشوح بيديه، يحاول أن يخلع البندقية من كتفيه، أن يمسك بها، أن يصوبها، أن يفعل أي شيء أن يصيح، أن يقول في صمت الليل، "أنا الأدهم يا أولاد الكلب.. " يفتح فمه عن آخره، لا تخرج الكلمات، صمت أخر، والأدهم عاجز تماما، يأخذون البطيخ، عدد كبير من الخلق، لا يعرف فردا واحدا منهم، يضحكون، يكركرون، يكسرون البطيخ، والأدهم واقف كأنه مقيد.

وبعد ذهابهم، جرى الأدهم، بكى، اهتز جسمه من شدة الحزن، عض نفسه، كاد يكسر البندقية، كز بأسنانه على

لسانه حتى أدماه، شد شعره، ولكن ما كان كان، سرق حقل البطيخ أمام عينيه.

أحس الأدهم، في هذا الليل، أن كرامته قد أهينت، أحس أن الذين سرقوا البطيخ، ضاجعوا زوجته، في مكان عام، عروا جسدها، وكان في لون الحليب، ثم بصقوا عليها. أدرك أنه يجب عليه أن يذهب إلى البلد من فوره، يحلق شاربه، يقلب جلبابه، ينكس بندقيته، يضع في أعلاها منديلاً أبيض، ثم يذهب بنفسه إلى أحد المقابر، كي يدفن نفسه فيه. وفي آخر الليل، وكان الفجر قد بدأ ينتشر على صفحة الليل، كان الأدهم يقول حكايته للأرواح الليلية المسافرة نحو السماء، يقولها كلمة كلمة. غير أنها لا ترد عليه.

وفي الصباح، يغسل الأدهم وجهه بالندى، مزيلاً أحزان الليلة السابقة. وعندما حضر الحاج ورداني، كانت جفون الأدهم حمراء، وكانت عيناه منتفختين، وحولهما هالات من السواد، وما كان يعذبه، أنه لم يجرؤ على أن يخبر الحاج ورداني بما حدث.

ـــصباح الخير يا سبع الليل.

ـــصباح النور يا حاج.

ـــوالنبي يا سبع الليل، رياح نفسك، دانـت مجـرد وجودك هنا، يخوف الناس كلهم.

ويمضي الحاج ورداني، يعود الأدهم إلـى نفسـه، ينداح سكون موحش في داخله، لا يدري ماذا سيفعل، وفـي النهار، يقسم ويقسم، ويستعد لليل المقبـل، يعمـر البندقيـة، يحضر العصا، يدور، يلف، يشتم رجلاً اقترب من الحقل، فيولي هاربا، ولكنه في الليل، كان يعتوره فتـور غريـب، ينظر فلا يرى، ينصت فلا يسمع، يفتح فمه فلا يسمع سـوى فحيح الصمت، يرفع يده فيجدها في ثقل الرصاص. يجلـس، فوق قلبه راقات من الصدأ تنسال في قلبه الهزيمـة قطـرة قطرة، هو وحده الذي يدرك حقيقة مأساته. وبعد أن يتركـه الحاج ورداني كل يوم، يعض على شفتيه بقسـوة، ويغـرز عصاه الخيزران في الأرض، ويسـتحلب تحـت الضـرس إحساسا لزجا بالهوان، ويشم رائحة احتراق شيء ما بداخله، وكان يشاهد بنفسه الدخان الأزرق خارجا من فمــه وأنفـه، ويدرك أن الشيء الذي يحترق بداخله الآن هـو رجولتـه، وانتهت مدة خدمته، قنع، وقنع بأقل من القليل، عاش علـى

الكفاف واقترب " من الناس، وابيض شعر رأسه. وتزوج فتاة صغيرة في عمر أولاده. وفي الليل. كان يحمل بندقيته ويرحل، يسافر الزمان، حتى يجد نفسه أخيرا يعود إلى أحضان الحبيبة الغالية، كما الأبطال، مستريحا إلى وسادة صوتها الحنون، مانحا لها كل ما يملكه رجل في مثل عمره.

قالت زوجته إنها حامل، وإن جارتها قالت لها إنه ولد، ما دام كثير التقلب في بطنها، بدت له كلمات زوجته الشابة، أشرعة سفينة، يسافر عليها إلى بلاد مجهولة، أحس بذنوب الحب في أعماقه، عد على أصابعه أشهر إقامتها معه، فوجدها أكثر من تسعة أشهر فحمد الله.

ــ لازم نسميه الأدهم الصغير.

قالت زوجته، وكانت تبدو فرحة، تتحسس بطنها بفرح حقيقي، جلست بجواره، التصقت به، كأنها تحتمي بوجوده من أشياء محددة، رفعت إليه عينين مترعتين بالنضارة والصبا..

ــ مالك اليومين دول يا سي الأدهم؟

ما بي لا أقدر على حكايته، لا أستطيع أن أقوله لك، أنت طفلة صغيرة، لا أستطيع أن أحكي لك حكاية الحزن

والجنون في آخر الليل، لا بد وأن أكفن حكايتي، يا صغيرتي، في أكفان بيضاء. وأدفنها في حبة القلب، حتى تنجلي الغمة، ويذهب الكرب، وهو في الطريق إلى الحقل، مر على الطفقشي، اشترى ذخيرة جديدة، يعتقد ولو للحظة، أن الذخيرة التي معه، والتي لم يطلق منها طلقة واحدة، ذخيرة فشنك. وهو في الطريق، أفزعه لحد الموت، أنه في منتصف الطريق تماما، توقف على الجسر، نظر خلفه، أمامه، حواليه غير أنه لم يجد له ظلاً على الأرض، رفع عينيه المنكسرتي الأهداب نحو السماء، كانت صافية، صفاء صيفيا عذبا. وجد أن الشمس تصب أشعتها على الكون، نظر إلى الأشجار والمزروعات، وجد أن ظلالها واضحة، استدار، جلس على الأرض، نبش بقدميه بحثًا عن ظله، لم يجده، وكان ساعتها طفل صغير يمر بجواره. وقف الطفل. راح ينظر إليه بدهشة ممزوجة بالخوف، غير أن الأدهم سأل الطفل إن كان له ظل على الأرض أم لا. وقف الأدهم، شب□ على أطراف أصابعه، جرى الطفل، أمسك ذيل جلبابه بين أسنانه، وقال لأول من قابله في الطريق، إن الأدهم قد حدث

له مس. بسمل الآخر وحوقل، وضرب كفًا بكف، وقال وهو يصعد بعينيه ناحية السماء " لا حول ولا قوة إلا بالله ".

* * *

فتاة ناضجة، يبدو بياض جسدها حتى من تحت ملابسها شديد الوضوح، كان زواجه منها بداية تنازلات ومساومات، وبحث عن أشياء بسيطة، لقمة تأكلها، وهدمة تلبسها، وكحل للعين، وصابونة للبشرة الناعمة، ودهان للشعر الأسود الفاحم كانت صدر□ اتسري فيه قشعريرة الحياة، وجسدا دافئا يطلب الإشباع بالليل. وكان كل ما يقدم عمها الأدهم، حتى النوم في حضنها الدافئ ليلاً، لا بد وأن يكون محاولة منه لإعادة النظر والتراجع.

* * *

ذهب الأدهم في ساعة العصاري إلى البلد، تسكّع في حواريها، وقف طويلاً عند دكان الباقلة، راجع حسابه في دفتر الشكك يوما بيوم، ذهب إلى منزله، أدهشه انتفاخ بطن زوجته الشابة. علقت بعنقه كالطفلة الصغيرة، دار في أرجاء الدار، ما كان في سالف الأيام من ساكني الدور، ولكن للضرورة أحكام". خرج، ذهب إلى الجامع، جلس مع شيخ

المسجد، صافح بلدته بعينيه، وهو في الطريق إلى حقل البطيخ، وكانت ساعة المغربية، الموشاة بذكريات اليوم الماضي، استدار إلى البلدة، استقرت البيوت الطينية الواطئة وشجرة الجميز ودكر النخل ومئذنة الجامع في أعماقه، خيل إليه أنه يشاهد هذه الأشياء للمرة الأخيرة، أحس بارتجافة الحزن، يذوب الأسى في داخله، تصور أنه يسمع وقع قطرات دمع دافئة تسح في أعماقه. وفي الطريق، وكانت ذرات الظلام الرمادية بدأت تلف الحقول بداخلها، وصوت رجل في حقل بعيد، يقول، إنه لولا الخيانة، لما مات الأدهم، بطل الأبطال، مقتولاً ذات يوم.

* * *

ـ منتصف الليل.

الأدهم يقف مكانه، يقسم لنفسه وللحقل أن أحدا لن يسرق أي شيء، تصور بعد قليل من الوقت أن هناك حركة في الركن الغربي من الحقل، أسرع إليه، فوجئ بأن البطيخة الكبيرة قد قطعت من فرعها، وزحزحت من مكانها، لو سرقت هذه البطيخة لانكشف أمره وكانت فضيحة، خاف عليها، الأدهم يحضر سكيناً حادا، يفتحها، يفرغها من قلبها،

يضع البندقية بجواره يدخل في بطن البطيخة. يقسم الأدهم ألف مرة، أنه لا يعرف سببا واحدا دفعه لذلك، كان يتصور أنه ينتقم، بدت له محاولته الأخيرة هذه، كدواء عفن يعالج به الأحزان. وفي داخل البطيخة، بدأ ينسكب في أعضائه ضعف شديد، وأدرك لحظة دخوله في جوف البطيخة الكبيرة، أنه يهبط الآن، كما تهبط طيور الليل، تمثلت له فجيعته، وحياته العريضة، جاب بر مصر بالطول وبالعرض. الاستيقاظ في الصباح، ويكون متعبا لحد الموت، الألم القاتل في العظام، الضعف في البصر، تناول الإفطار، لف سيجارة رفيعة جدا، الخروج، التسكع في حواري البلد، الجلوس على المصاطب، وعلى أبواب الحارات، النوم وقت القيلولة في جامع البلد، الاستحمام بعد الظهر في ميضة الجامع، الاستماع إلى الدرس الديني، العيش على حكايا الآخرين، الجر من الدكان "شكك" حتى أول الشهر، لعب السيجة ساعة العصاري في الباحة الواسعة، خلف الجامع، التراهن على أشياء بسيطة، دور شاي، سيجارة غليظة، وفي البيت يتناول العشاء، طعاما مغموسا بدموع العين، يشرب الشاي، الكلام منفرد من طرف واحد، حكاية الزوجة الشابة، جسدها الذي يضج بنداء

الرغبة، وفي الليل، النوم بمفرده مرتديا قميصا قصيرا على اللحم، والشابة الصغيرة في الحجرة الأخرى، بيضاء، دافئة وفي منتصف الليل، قبل الفجر بقليل " الصلاة خير من النوم، السفر على أجنحة الأحلام إلى بلاد بعيدة، صلاة الفجر في الجامع، العودة إلى الدار، الحمد الله، الحمد الله، الحمد الله، الجلوس فوق السطوح وسط قطرات الندى الباردة، تثقب أشرطة النور الرمادية رداء الليل، تنضح معالم الأشياء، ويشرق على الناس يوم جديد.

كان يريد أن يتحرر من إسار الماضي، وقال الأدهم، سلّم نفسك يا زهران، أنا الأدهم، أن يتحرر من احترام الناس له، حكاياتهم عنه، كلماتهم المبللة بالشوق، الموشاة بالحزن والحنين، إنه يود أن يجلس على الأرض، يقف في الخارج بقميصه الداخلي، يذهب إلى العشة، يشرب الجوزة بدون مياه، حتى يذهب العقل تماما، وترتخي العظام وتزوغ النظرات وتنفك عقدة اللسان، يدرك الأدهم، أنه يفعل هذا كله وهو يدخل البطيخة، بل يدرك أنه لا يدخل البطيخة بمفرده، يدخل معه الألم المتراكم، والحزن الطري، حزن ليالي العراء، والسفر في الليل، والجري بغير حدود.

وفي قلب البطيخة، أحس أن في قلبه آهات،
وزفرات، نقاط دمع متجمدة، ليست من لغة الناس ولا الحياة.
بل هي شيء خاص به. إنه يشعر الآن بأنه يريد أن يخرج رأسه من داخل البطيخة، كيس يستنشق هواء الليل الطري الدسم يملأ رئتيه. يريد أن يقول حكايته لطيور الليل المهاجرة نحو الجنوب، يقولها بصوت عال علها تسمعه، ثم يرحل معها، فوق البلاد والأنهار، نحو معابر مجهولة، ودونما وجهة معينة، فقد يجد هناك، في أقصى الوادي، ما فقده، ويعود، وتكون البطولة خبز كل يوم، والأدهم حكاية كل الساعات، غير أنه لم يقل شيئًا، ببساطة، لم يستطع حتى أن يخرج رأسه من داخل البطيخة.
عن البطل كنت أقول..
أحكي قصتي،
المسافر عن الرجل المفعم بالجسارة، عن الأسطورة، عنه، المنطق دائما، في خبء الليالي، وقشعريرة الصمت،
في الزمان أبدًا، أحكي عن الأدهم، عن سبع الليل.
لكم يا أهل بلدتي.

العودة من الحقل

لحظة الغروب الليل على مشارف القرية ككابوس مخيف. وضع عبد الحفيظ البردعة على ظهر الحمار. ربطها. نظر إلى ظله فوجد أنه استطال وبهتت معالمه، غبشه المساء، أحس بجفاف الأرض تحت قدميه، الترعة مشققة من الجفاف. بقايا لعبة السيجة في أحد أركان القناة التي ابيـ ظونها بفعل الجفاف رفع الحمار رأسه.. نهق بصوت عال. حلّ عبد الحفيظ رباط الجاموسة في بطء. كل شيء حوله هزيل. ظلال الأشجار وقد تساقطت الأوراق من فوق الغصون، فكر عبد الحفيظ لو تمطر السماء ولو قطرة واحدة. إنه يدرك أن فصل الشتاء لم يحن بعد. وأن فصل الخريف لم ينقض منه سوى أيام ولكنه الجفاف من حوله أكد له استحالة هذا. بدت أعواد البرسيم الخضراء والقناة الحبلى بالخصب والماء وقطرات الماء في الحر القائظ ساعة الظهيرة على ظهر الجاموسة التي تستحم في مياه الترعة كأشياء لا وجود لها. فكّ رباط البقرة الشقوق الكبيرة في الأرض كأنها أبواب الجحيم أمسك بمقودهما معا نظر إلى

الشقوق الكبيرة في الأرض حرك أصابعه في فتور. فكر: متى تنتهي أيام التحاريق. حلقات الغبار المنعقدة في كل الطرقات ولو كانت هناك مياه لرشت الأرض. ولبدا الهواء رقيقا بدت فروع الأشجار العارية من الأوراق كشيء لا يبعث إلا على اليأس وشم رائحة الجفاف. بدت الجاموسة ضئيلة لحد البؤس. وفكر في أيام التحاريق من العام الماضي ذبحت جاموسته. بيعت لجزار القرية بأبخس الأثمان، ركب حماره والدموع الدافئة تسح في أعماقه. وتساءل: ماذا تحمل تحاريق هذا العام؟ حا. حا. ك. ك. لا يوجد في المنزل بق لبن واحد. علف الجاموسة هو التين فقط. حي. حي. هبت عليه نسمة هواء راكدة فأكدت في خياشيمه رائحة الجفاف. عه. عه. نظر إلى السماء لونها رمادي لا يثير سوى الكآبة في النفس. ذرات الغبار تتساقط في هدوء.. هبط المساء. تاهت معالم الأشياء. حاول أن يكلم نفسه. لم تخرج الكلمات من فمه. فتحه وأغلقه. دون أن يخرج أي صوت. عندما وصل إلى منزله. نزل من فوق الحمار. نادى على زوجته. أخذت منه مقود البقرة والجاموسة. أدخل الحمار إلى الزريبة. عند مروره على الكانون والفرن لم يشم رائحة

الدخان فأدرك كل شيء على الفور. جلس يقيد الحمار. ويضع أمامه التبن وقليلاً من الفول. نهض في بطء. سوى الطاقية على رأسه. تحسس شاربه الكث. وقف في وسط الدار. الظلام يتسلل إلى كل شيء الجو خانق خرج إلى باب داره. الأسى يترقرق في الأركان المظلمة والزوايا الرمادية. تنهد: لو يذهب في الصباح ليجد القناة مثقلة بالماء، طلب من زوجته أن تعد له نومته على سطح المقعد العالي فقد تمطر السماء في آخر الليل. نام على ظهره. فرد رجليه على آخرهما تحسس الحصير الجديد بباطن يده. أدار عينيه المكحولتين باليأس والقنوط في أركان السماء الأربعة. وعندما وجدها مزروعة بالنجوم الشاحبة. وعندما تبين له أنها سماء الخريف المغسولة بالحزن والغبار، عندئذ أدرك أنه حزين.

باب المدينة

وقفت الأم، تحمل على يديها الطفل الصغير، على باب المدينة، فلاحة قادمة من القرية البعيدة. تطرق باب المدينة، ومعها طفلها، لم تكن تعرف أن المدينة لها سور،

وأن في السور أبواب، وعلى الأبواب حراس، فـي أيـاديهم السلاح وفي جباخاناتهم الذخيرة الحيـة، وفـوق رءوسـهم الخوذات،وعلى صدورهم وفوق أذرعهم الدروع، وأن باب المدينة. يبدأ من الأرض، ولا ينتهي سوى في السماء، ويسد عين الشمس، ونور النهار وظلام الليل، وحر بؤونة وبـرد أمشير وغبار الخماسين. وأن باب المدينة يفتحه الحـارس، عندما يعطيها. الإذن بالدخول، ويغلقه بعد عبورها مباشرة.

لم يكن باب المدينة مثل باب البيت، الـذي أخـذوه منها، في القرية البعيدة. ليس بابا من الخشب، له ضبة، وله مفتاح، ولكنه قطعة من الحديد على شكل عيدان مثل قضبان السجون التي يعيش وراءها زوجها. السجون التـي مـلأت المدن والبنادر والقرى والمراكز، وحتى العـزب والكفـور

والنجوع. وقفت الأم، والطفل الصغير على يديها، تطلب مـن
الحارس الإذن لها بالدخول إلى المدينة. سألها عن أوراقهـا. فقالت إنها لا تحمل حتى الورقة التي توضع فيهـا الصـورة والاسم وبصمة الإصبع، ويأخذونها من المركز، سألها عـن المكان الذي قدمت منه. أشارت إلى أبعد نقطة عنـد حافـة

الأفق. وقالت، هناك في البعيد في حضن السماء تنام قريتها، سألها، لماذا لم تجدي سوى الجبل لكي تنام في حضنه؟ قالت إن الهم الدائم فوق حبة القلب. لو تحرك فمن يوقفه. الهموم مثل موج البحر البعيد، الجايات أكثر من الرائحات. سألها عن المكان الذي تقصد الذهاب إليه. فقالت، لقمة العيش، والدار التي تؤويها، والقلب الحنون الذي تشرب من نبعه، والجدار الذي تستند إليه، قالت إن عجوز قريتها، الرجل الذي كان في حلقة الذكر مع عرابي، الذي كسره الولس، قال لها، عليك بالمدن فهي أماكن السعادة في هذا العالم. بهجة المحزون. وأمان الخائف وراحة المركوب. ولقمة العيش الساخنة للجائع. وأمل كل من هم التعب.

عجب العسكري لقولها، وهف لها قلبه، ولأنه أصلاً من القرى البعيدة. ولا يحب في وقفته هذه أن يتذكر حكاية الهجرة، جبال الهموم. فوق الصدر، معلقة في رموش العين، وهو نفسه لا يعرف، كيف يحمل كل هذه الجبال، وكيف ينام ويقوم دون أن تنهد جبال الهموم. التي فوقه والتي بداخله.

قال لها، إنه سيدخلها المدينة، بشرط أن يفتشها، قوانين المدينة تنص على أنه في حالة التفتيش الذاتي لامرأة،

لا بد وأن تقوم به امرأة. وقوانين حكام المدينة تقول بالخط العريض إنه لا بد من تفتيش كل إنسان يدخل ذاتيا، اختفى الأمان ولا بد من التفتيش في عصرنا، خلق الإنسان، لكي يفتشه الآخرون، الناس نوعان، الذين يفتشون الآخرين. أو الذين يفتشهم الآخرون، المهم أنه لا مفر من التفتيش، عليها الانتظار، لحين حضور المرأة التي تفتش النساء اللاتي يرغبن في دخول المدينة سألته، وهل تغيب المرأة طويلاً قال إنه لا يعلم مر عام على آخر مرة حضرت فيها. ومن يدري متى تحضر؟

سكت العسكري، وإن كان يبدو كأن على شفتيه كلمات لم يقلها. فهمت هي الأمر. قالت إنها تقبل أن يفتشها هو ذاتياً، وإن كانت لم تفهم معنى الكلمة حتى لا تنتظر مدة قد تطول.

خلف المبنى، الذي يستعمل كمركز لتفتيش الداخلين إلى المدينة وضعت ابنها، الذي كان ينام على الأرض، وبدأت تستعد للتفتيش، كان الهواء راكدا، وكان معلقًا فيه رائحة عفونة ونتانة وتخمر بول وكانت النباتات الشيطانية، والتي لم يزرعها أحد. تملأ المكان، داست على الأغصان

اليابسة. تذكرت الأغصان الطرية في قريتها، فقالت في نفسها، لم يكن هناك مفر من الرحيل.

وقف العسكري ينتظر. حاول أن يبعد الطنين المتولد في أذنيه.

وعندما فشل في إبعاد الطنين، حاول أن يقبض عليه بيديه وبدا له ذلك مستحيلاً، كان الطفل قدنام. كان فمه مفتوحا، وكان مستغرقاً في النوم، رغم أن نصف بياض عينيه كان يبدو من تحت الرموش الطويلة. وكان قد بدأ يحلم، تحركت شفتاه، وقال كلمات مهشمة عن البيت والعمل والأب،قال الدفء والأمان والأيام القادمة. تنبه العسكري على صوت الطفل، واكتشف أنه لن يستطيع تفتيش دماغ الطفل ولا دماغ أمه. وتلك هي المهمة الصعبة، من يدري؟ قد تتسلل إلى المدينة أمور خطيرة؟ نظر إلى المرأة، التي تعرف كيف تستعد للتفتيش الذاتي، كانت قد اكتشفت وجود زهرة بيضاء. نبتت في الأرض وراء مركز التفتيش، كانت تجلس على الأرض تنظر إليها، وتبحث بعينيها عن ماء تروي به الزهرة. كانت تتحسس صدرها. الذي يبدو مثقلاً بلبن نظيف بكر. قال العسكري في نفسه إن المرأة القروية

تفكر في ري الزهرة البيضاء، بلبن صدرها الأبيض. كل الأمور الخطيرة، مثل سحب الشتاء تأتي مع بعضها.

تذكر العسكري، أنه دهس بقدميه آلاف الزهور البيضاء والخضراء والزرقاء ومن كافة الألوان، كلما أتى إلى هنا، للتبول، أو لتفتيش أحد بصورة ذاتية. بدا له الموقف سخيًفا، كان الطفل يحلم والمرأة تبحث عن مياه تروي بها الزهرة البيضاء، كانت المرة الأولى في حياة العسكري التي يواجه فيها موقف مثل هذا.

وقبل أن يفكر طويلاً في الأمر. وبدلاً من أن تأخذه بحور الفكر إلى آخر العالم وتذهب به إلى حضن السما الذي تنام فيه القرية البعيدة البعيدة، وتعود به إلى حضن الجبل، الذي تنام فيه المدينة القريبة. وقبل أن يربط بين المرأة القروية الفلاحة، التي يمتلئ صدرها باللبن الأبيض البكر، غير المغشوش. وبين كل الأشياء الجميلة في حياته. انتصب العسكري في وقفته. وأمسك بسلاحه وأصدر أوامره للمرأة أن تحمل طفلها، الذي يحلم بالمستقبل. أن تقف خارج باب المدينة، حتى تحضر امرأة لكي تفتشها ذاتيا. وحتى يحضر

الضابط الكبير. المختص بتفتيش الأدمغة، بحثًا عن الأفكار الغريبة، حتى يكون موقفه سليما ولا يقدم للمحاكمة.

حزنت المرأة، أصبحت عيناها أكثر اتساعا، ورموشها أكثر سوادا، وخاف العسكري على نفسه من بحار عينيها، المجهولة الشواطئ، صحا الطفل من حلمه بالأب والدفء والبيت، على صوت ضرب البندقية في الأرض. وقفت الأم. وعلى يديها الطفل الذي لم يعد قادرا على النوم، ولا على الحلم. وقفا بالقرب من باب المدينة في انتظار المرأة المفتشة، والضابط الكبير.

هبت رياح الأحزان عليها. ولكن ما أفزع الأم. كان جفاف دموع العين، عذبها البحث عن دمعة واحدة. تقلل من طعم الملح في العينين قالت في نفسها اسعفيني يا دموع العين. ولكن العينين لم تسعفانها.

ــ تسلل إليها خاطر أفزعها. هل يجف اللبن في الصدر. أيضا. من كثرة خوفها على طفلها وعلى الزهرة البيضاء وعلى العسل المسكوب في صدرها. خافت من التفكير في هذا الأمر.

وقفت الأم تحمل الطفل.

كانا ينتظران.

٢٨٩١

البعد

الأسطى جابر ليس ترزي القرية فقط، ولكنه "العرضحالجي "، الوحيد فيها. يحول ما يريد الناس قوله إلى كلمات. يكتبها لمن يستحمون على البعد في مياه الغربة. هذا ما يفعله في ضوء النهارات. ولكنه في ظلام الليالي. يكتب في غرفته الداخلية. وعلى ضوء لمبة جاز نمرة عشرة. شكاوى الناس، كان يقول من قبل إنه يكتب شكاوى المظاليم. ولكن لأن الكل يشكو والكل يحضر إليه في الليل. أصبح يقول شكاوى الناس. يكتبها سرا وبيده الشمال. حتى لا يعرف أحد صاحب الخط بعد وصول هذه الشكاوى إلى الجهات المسئولة. حضرت له البنت شمعة، وحيدة ومقطوعة من شجرة، أخوها الوحيد، سافر إلى ديار العرب، بعد أن ضاقت به الحال، في يدها ربع جنيه، مطوي أكثر من مرة وفي واليد الأخرى، ورقة بيضاء مسطرة مقطوعة من كراس الخط العربي لتلميذ في الابتدائي، ومشرشرة في الجانب الذي

قطعت منه. وفي اليد الأخرى، بقايا قلم كوبيا، مبري من الناحيتين، وضعت ما معها أمامه. ولأنه يعرف. وكل أهل البلد يعرفون أيضا. أن شمعة لا تنطق. قال لنفسه:

ــ مفهوم.

يعرف المطلوب منه مقدما، أن يكتب لها رسالة لأخيها عبد الونيس. دارت الكلمات في ذهنه. ولدنا الغالي عبد الونيس ــ لا ــ لن يكتب ولدنا، فالأم ماتت. والأب مات بعدها. والأخ سافر إلى ديار العرب. ولم يبق سوى شمعة بمفردها. سيقول: أخي الغالي، لا تكفي كلمة أخي فقط، هل يقول: يا كل من لي في هذا العالم؟ قال لنفسه. إن مستوى الكلمات أكبر من فهم وإدراك هذه البكماء، سيقول: يا أبي ويا أخي الغالي عبد الونيس. سعد الأسطى جابر بعثوره في ذهنه على مقدمة الخطاب، أخذ منها الربع جنيه الذي وجد صعوبة في فرده من جديد. وأعاد لها وهو يبتسم الورقة المشرشرة. المقطوعة من كراس الخط العربي لتلميذ في مدرسة ابتدائية. وأعاد لها ربع القلم الكوبيا المبري من الناحيتين، استفهمت ملامح وجهها فأشار إلى داخل الدكان، ومن المكان الذي أشار له. أحضر قلم الحبر ودواية الحبر.

ودوسيه الورق الأبيض المسطر. والمصمم خصيصـ□ا من أجل كتابة الخطابات، ولم يحضر هذه المرة دليل كتابة الرسائل للأهل والأحباب، لأن الموضوع سهل وجاهز في ذهنه، قال لنفسه، وهو يبسمل. إما أن شمعة تريد أن تطلب منه النقود أو أنها تسلم عليه وتطمئن على أحواله. فقد تسللت الوحشة إلى قلبها. أو أنها تستفسر عن عدم إرسال أي رسالة لها. منذ سفره. تذكر الأسطى جابر في هذه اللحظة أن شمعة لم تحضر له برسالة قادمة لها من عبد الونيس الذي يعمل في بلاد العرب. يقرأها لها. وهو عادة يقوم بهذا العمل بدون أجر. فهو يحصل على أجره مقابل كتابة الرسائل فقط. أما قراءة الردود عليها. فهو عمل مجاني. مضى عام على سفر ونيس ــ هكذا ينادونه في البلد من الاختصار ــ ولم ترد منه كلمة واحدة. لا تحمل الخير ولا الشر. الأسطى جابر هو الذي جهز له الأوراق المطلوبة واستخرج له البسبورت من ديوان المديرية رأسا. وله عند ونيس باقي أتعابه لحين حضوره من الغربة. ومن يومها لم تحضر له شمعة ومعها رسالة كي يقرأها لها. قال لنفسه. ربما حضرت لها بعض الرسائل وقرأها لها تلاميذ المدارس، الذين امتلأت لهم القرية

على آخر الزمان. صرف الأسطى كل هذه الأمور من ذهنه.
وقرر أن يسأل شمعة قبل أن يخط حرفًا في رسالتها إلى أخيها عما تريد منه. سأصبح بهلوانًا على الصبح. ابتسم لنفسه وهذا الخاطر يمر بذهنه. ويملأ خاطره.
وضع الورقة التي كان قد أخرجها من الدوسيه على منضدة التفصيل ووضع الدواية والقلم بجوار الورقة واستدار لشمعة. حاول أن يستفهم منها عما تريده. حرك يده اليمنى على الورقة في الهواء ونظر إليها. بدا أنها لم تفهم ما يقوله. تساءل: يقولون إن البكم إنما يحدث بسبب شدة الذكاء.. فأين ذكاءها إذن؟ قرر أن يسألها عن كل سبب لكتابة الرسالة إلى أخيها على حدة. أدار يده اليسرى حتى أصبحت في مواجهة يده اليمنى. وصافح يده اليسرى بيده اليمنى. هز هما بشدة. وهز رأسه لها مستفهما أن كان هذا المطلوب، فلم ترد. أخرج نقودا من جيبه. وراح يعدها. يرمي القرش الذي تاهت معالمه من كثرة الاستعمال، من يد إلى يد ينزل القرش على راحة يده اليسرى فلا يسمع له رنينًا. مثل الرنين الذي كان يسمعه في الأيام الماضية. بعد أن تجمعت القروش القليلة في كفه الأيسر. ضم الكفين معا. شكل بهما دائرة. ووضع النقود

كلها في جيبه. واستفهم منها إن كان ما نطلبه من ونيس هي هذه النقود المصنوعة من الصفيح. فلم ترد. نظر إليها. أشار لعينيه. متجهما. تصنع الدهشة والفرح اللذان يشعر بهما من يقابل الحبيب بعد فترة طويلة من البعاد. فتح يديه. ارتمى في أحضان حبيب غائب وهمي.. قبلة في الهواء. ونظر إليها. ولكنها لم ترد. أحضر ظرف جواب. أغلقه على ورقة بيضاء. ثم قام بفتحه من جديد. وأخرج الورقة البيضاء من داخله. وبدأ في قراءة الورقة وتوقف عند منتصف الورقة كان يحرك شفتيه في الهواء دون أن يقول شيئًا. استفهم منها. فلم ترد. وإن كان التأثر قد بدا واضحا على ملامح وجهها. قال لنفسه: ربما كان هذا هو طلبها. وضع الورقة والظرف، ونظر لها مرة أخرى. وأشار من جديد إلى الأشياء فسكتت. وذاب التأثر في ملامح الوجه.

كان الأسطى جابر قد تعب من الجهد الذي قام به. وكانت حبات العرق، قد نبتت فوق جبهته، وانزلقت من تحت الطاقية الصوف التي كان يغطي بها رأسه. كان من السهل عليه كتابة عشر رسائل بدلاً من التمثيل الذي قام به. قال في نفسه: إن البنت مقطوعة من شجرة. لا فرع ولا جذر لها.

وما فعله معها. سيكون ثوابه عند الله. سبحانه وتعالى. حرك يديه في المسافة التي تفصل بينهما. ماذا تريد بالضبط؟ أشار لرأسه، حاول أنه يفهمها أنه متعب، مد إصبعه وبللها بالعرق. ثم قرب الإصبع المبلل بالعرق من أحد عينيها. حتى كاد الإصبع أن يلامس بقايا رموش العين التي تساقطت معظم رموشها وكان يود أن يؤكد لها أنه متعب. ولكنها لم تتكلم. نفخ بفمه بصوت عال. وبان الضيق على وجهه، أشار لماكينة الخياطة والقماش الموضوع على منضدة التفصيل على شكل أتواب خام، والمقص القائم لم تحركه يد منذ الصباح فلم تتحرك، وفي لحظة غضب. أشار لها ناحية الباب. باب الدكان الرئيسي. الذي كان مفتوحا وقال بصوت عال:

ـــ الباب يسع مائة جمل تخرج منه.

لم يكن قد أكمل الجملة، حتى كانت مقدمات البكاء واضحة على ملامح وجهها، من قال إن منابت الدمع في عينيها قد جفت؟ شهقت، شهقة خيل للأسطى جابر أنها هزت الدكان، انتفض صدرها، حتى تصور أنه سينفجر من كثرة الهواء فيه. ثم هبط ببطء، وبدأت تبكي. نزلت الدموع من

عينيها والمخاط من منخاريها. ولأنها حولاء فإن خطي الدموع كانا يسيران في اتجاهين مختلفين. ولأن الوقت صبا له والدكان دخله نور الصباح الواضح. فقد شاهد الأسطى جابر بوضوح خطي الدموع على خديها. ولأن الصمت الصباحي كان يفرض نفسه. على القرية كلها. سمع نهنهة بكاء. كانت المرة الأولى التي يصله فيها صوت من شمعة. رفع يده، بأن التأثر على وجهه وهو يطلب منها السكوت، وأمسك بالقلم وخط الكلمات لونيس. أبي وأخي الغالي. أحتار بعد الديباجة الأولى ماذا يقول؟ نظر إليها. قاطعه وجه عكرته خطوط الدموع. والحمار في العينين أخذ شكلاً غريبا. لأن كل عين كانت تنظر في ناحية. فكتب: احتارت بلدتنا يا بني في فهم دموع شمعة. هل تنقذها وتكتب لها؟ طال البعاد. والبنت وحيدة. وكتب كلاما آخر عن سوء الحال والفم الذي لا يطلب الطعام. والجسم الذي يبحث عن الهدمة التي تستره والروح التي لا وليف لها سواه، وكتب أيضا عن اتساع البيت القديم المهجور على شمعة وخوفها من الصمت الليلي وهو بعيد في ديار العرب لا يعرف أحد أين أراضيه بالضبط.

طوى الورقة. ووضعها في الظرف. وسلمه لها. لم يكن يعرف العنوان. وكان متعبا كان مرهقاً من الانفعال. رد لها الربع جنيه كما هو. والورقة المشرشرة وربع قلم الكوبيا، وكانت قد وضعت هذه الأشياء على المنضدة، وأشار إلى الطريق المؤدي إلى مكتب البريد. وهي تصورت أن الحكاية انتهت بسلام، ما عليها الآن سوى الذهاب إلى مكتب البريد ومن هناك ترسل الخطاب. وفي كل الأيام القادمة ما عليها سوى الذهاب إلى مكتب البريد لتسأل عن وصول الرد من أخيها. سارت. الدموع لم تنقطع، والنهنهة كما هي والصدر يرتفع وينخفض بهدوء وبطء. كانت تفكر في ربع الجنيه الذي احتفظت به معها. وفي الرسالة المكتوبة لأخيها وفي حلاوة الانتظار. والذهاب كل يوم. إلى مكتب البريد والجلوس على المصطبة التي بجانبه. حتى تحضر البوستة من المركز. وبدأت خطوط الدموع تجف مخلفة وراءها، بريقاً محببا إلى من ينظر إليها، أما الأسطى جابر، فقد جلس في مكانه على الكرسي المقابل لماكينة الخياطة، كانت قطع القماش كثيرة ومكومة. وكان النهار في أوله. والزبائن في انتظار أن تتحول أثواب القماش الخام إلى جلابيب يلفون بها

في حواري البلدة. التي تبدو مثل الخنادق. ولكن يديه لم تكونا تأكلانه وتدفعانه إلى العمل، شعر هو بكسل وفتور. قال في نفسه إن المثل القديم في قريتنا يقول: أخذوا رجل الخرساء فنطقت، ومع هذا فإن شمعة لا تعرف سوى البكاء. ربما، فشمعة لا تعرف غير أن أخاها مسافر فقط. وأنه لم يؤخذ منها بعد. ومع هذا فقد استمع اليوم إلى نهنهة البكاء واضحة، ربما نطقت شمعة من وجع البعاد. من يدري؟ تمنى الأسطى جابر في جلسته، أن يكفيه دخله من الخياطة حتى لا يحشر نفسه في هموم الناس التي تزداد يوما بعد يوم. وكأنها تتوالد من بعضها البعض. لم يكن يعرف عنوان ونيس. ولا شمعة تعرف عنوان ونيس. سافر إلى ديار العرب. لم يكن يعرف أين يستقر به المقام بعد الوصول، قال إنه سيرسل عنوانه من هناك. بعد أن يجد العمل. وبعد أن يجد السكن. سيكتب لهم الرسائل. يصف فيها العمل، ويصف فيها السكن. ويقول للأسطى جابر بشكل خاص الكثير عن مسائل الأموال. ما يحصل عليه. وما ينفقه وما يدخره. ليبدأ به من جديد. هنا في البلد. قال هذا وسافر. ومن يوم سفره. لا حس له ولا خبر. استدار العام الأول. واكتمل. وونيس لم يرسل

عنوانه حتى الآن. والأسطى جابر لم يكن يستطيع إفهامها حكاية العنوان، وهي أيضا لا تدري أي شيء عن العنوان، تشارك الأسطى في جلسته الحزينة ترى لو كانت حدثتها عن العنوان وفهمت الأمر. هل تنطق شمعة في هذه الحالة؟

وظل سؤال الأسطى معلقًا في هواء الصباح الطري والطازج. وعلى باب مكتب البريد.

كانت شمعة.

٠٨٩١

صهد الشراقي

ما إن تأتي لحظة القيالة، حتى تفعل مثلما كانت ترى المرحوم زوجها يفعل. تقف في حوش الدار التي بدون سقف. يستقيم جسدها في وقفته، تنظر إلى السماء. ثم تعاود النظر في الجهات الأربع، وتستقر العينان على الأرض في النهاية، إن لم يكن لها ظل، تكون ساعة القيالة. في هذا الوقت تستعد للخروج من البيت. هكذا كان يفعل المرحوم زوجها. ورغم طول السنوات وبعده عنها. وخراب الجسور بينهما. إلا أن هذه اللحظة تذكرها به. ما إن تأتي، حتى تشم رائحة عرقه، وترى علامات التعب والإجهاد على ملامح وجهه، وتشعر بنفرات الدم في عروقه، وتسمع دقات قلبه على عظام صدره. التي تبدو تحت الجلد مثل جريد القفص الفارغ.

في وقفتها، تهفّ عليها روائحه، وتهفو نفسها له رغم وجع البعاد، وضنى الأيام الطويلة، التي تفصلها عنه. الفارق الوحيد. أن وقفة الغالي كانت تتم في الحقل. ووقفتها تأتي في البيت الصامت المهجور. وعندما تتأكد أنها لحظة القيالة، تبدأ

الاستعداد لرحلة كل يوم. تذهب إلى ابنها في الحقل، معها غذاؤه، وتبقى معه، حتى تأتي نسمات العصاري فتكنس بطراوتها حرارة القيالة. ثم تعود إلى البيت.

في هذا اليوم، كان الحر أعمدة من القيظ، وكانت السحابات الملتهبة تعوم في الجو. وقد شارك الغبار مع الحرارة، فأصبحت القدرة على التنفس صعبة. وفي الجو، في المسافات التي تفصل بين السماء البعيدة، والأرض التي التهب جوفها واشتعل، كانت خيالات الحر تتحرك على الأرض.

يكون الطعام معدا، وتجلس هي في انتظار هذه اللحظة. من قبل، كان كيانها يتحول إلى أذنين. تشربان آذان الظهر الذي يصلهما من فوق مئذنة المسجد القريب. التي تشرب من قلب السماء، حرارة القيالة، وطراوة العصاري، وطل الليل، ولكن سمعها ضعف، ولم تعد الأصوات البعيدة تصلها بسهولة. فقررت أن تفعل مثلما كان المرحوم يفعل. ولكنها عندما أخبرت ابنها متولي بذلك، شعر بضيق، ورجاها، ألا تفعل مثل المرحوم. وإن كان لم يقل لها السبب في ذلك.

تتحرك رحمة من مكانها، تحضر ملابس الخروج، الجلباب الأسود والطرحة من نفس لون الجلباب. وإن كانت الطرحة بها الكثير من الثقوب. وسوادهما لا يبدو مؤكدا، لأن اللون بهت من الشمس. ترتدي ملابسها، تبدو وكأن الليل قد أتى بها إلى هذا البيت في الليلة الماضية. ثم رحل ونساها. وفر هاربا أمام ضوء النهار. وأنها لا تزال في انتظار الليلة القادمة حتى يستردها من ضوء النهار. تدوس على الأرض بهدوء، ولكن دوسة القدم الحافية على الأرض. تجعل الذباب يطير، يتحرك في الجو، يصبح على شكل سحابة، توفر دائرة صغيرة من الظلال الممزقة. تتحرك على الأرض بحركة الذباب في وسط الأرض العارية. ويبدو ظلها مثل المنخل، تحمل السبت الصغير، الذي تضع فيه الطعام، وفوقه فوطة قديمة، فوق رأسها. بدون حواية، فهو صغير ولا يقع من الحركة. والقلة المبللة من رشح المياه الباردة. تحملها على يدها اليسرى، تكون غير مغطاة. فهي تغطى فمها بعيدان زرع خضراء من أول زراعة تقابلها في الطريق. فتسدها وتظللها في وقت واحد. القلة تنز منها المياه. ومع هذا تجف

بسرعة. وكان ملمس المياه على يدها رطبـا. ولأن المـاء يتبخر بسرعة. فيزداد الإحساس بالرطوبة.

تخرج من وسط الدار، تشد الباب الكبير وراءها. بيدها اليمنى الخالية، تسمع له صوتًا قديما علاه الصدأ. وعندما يستريح الباب في إطاره، تمسك بالعصفورة، تديرها. حتى تصبح خلف الباب، يتساوى الباب الذي نخر خشبه السوس، والجدار الذي تساقط منه الطين. وأصبحت الرياح تأكل قوالب الطوب التي ظهرت واضحة. يمكنها أن تراها. قالبا قالبا. وفي كل يوم. تقرر أن تضع طينًا مكان الذي تساقط. بين القوالب وبعضها. ولكنها تؤجل ذلك الأمر إلى اليوم التالي. وعندما يأتي هذا اليوم تشعر أنها متعبة وأن حيلها مهدود. وأنها لا تستطيع أن تصلب طولها أبدا.

تخرج المفتاح من جيبها. وتقفل الباب. ثم تدفع الباب بيدها بكل قوتها. حتى تتأكد من إغلاقه. قبل أن تسير مبتعدة عن البيت. تقول لنفسها وهي تسير إن أولاد الحرام.لم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا. البيت في حارة مثل الخندق. والأبواب مثل الشقوق على الجانبين، تفتح الأبواب، فتتسع الشقوق. ولكن بعد إغلاقها يبقى الشق كما هو.

في الحارة، كان الأطفال يلعبون. يسبحون في عرقهم اللزج. أطفال من الغبار والوحل. وشريط الذباب يحيط بالوجوه. بالشفتين وفتحتي الأنف وحول العينين. وعلى الخدود التي يغطيها التراب، إن الذباب يعطي الوجه شكله الخارجي من بعيد.

الحارة تصب في داير الناحية، الشارع الرئيسي الذي يدور حول البلد. مثل الدائرة، تسير فيه حتى الرحباية، الموجودة أمام دوار العمدة. وبعدها تمسك سكة المدافن. الملاصقة للقناية التي تروي حديقة العمدة. تسير في السكة والقناية على يمينها، وتتحول على قنطرة تهتز تحتها، فتصبح على يسارها تتحول القناية إلى ترعة. ثم إلى مصرف كبير. وتسلمها سكة المدافن إلى مدق بين حقلين. وأخيرا تصل إلى الحقل الذي يعمل فيه ابنها متولي.

كان الجو حارا. ومن شدة الحر كانت رحمة تشعر بوخز في عينيها. وأن جفني العينين تحتهما ملح. وإن رموش العينين ذابتا وسط قطرات العرق. سارت، كل من رآها. قال إن رحمة جففها الحرمان، وامتص الحياة منها.

عودها اليابس كشجرة نبتت وكبرت في أرض بور شراقي، لم يطفئ ظمأها الماء أبدا.

شعرت بسخونة الأرض، نظرت في الطريق أمامها، كان خاليا من الأشجار والشمس نصب نارها على الأرض مباشرة. كل الأشجار قطعت في الشهر الماضي. وبيعت لتأجر أخشاب. وعندما ترحم الناس على مساحات الظل قال من باعوها. إنهم سيزرعون مكانها أشجارا سرعان ما تفرش مساحات جديدة من الظل. أكثر من المساحات الأولى. ظل بكر، بدلاً من الظل الهرم العجوز، الذي كان موجودا من قبل ترحمت على أبيها، وأيامه الجميلة. التي لم تعد أبدا، كان يقول، إن زراعة الظل في الغيطان، أهم من زراعة القمح والقطن والبرسيم.

الطريق طويل، وخلوه من الأشجار، يجعل ضوء الشمس يتراقص. والحرارة تبعد الأشياء وتقربها. وحبات الحصى تبدو وكأنها قليت على صفيحة ساخنة. وتتقافز من شدة الحرارة. لا توجد مساحة تكفي لشبر من الظل. ومع ذلك هذا لا بد وأن تسير رحمة. ولا بد من الوصول إلى متولي.

كم يبدو ذلك الزمان الجميل بعيدا، تحسرت على أيام زمان. أيام الظل. كان الطريق يبدو أمامها. وكأنه مسقوفًا. مغطى بالخضرة والظلال كله. ورائحة الماء تبلل الحرارة. وكأن باطن الأرض يشع الدفء في الشتاء، كانت حافية، والأرض تطش النار في بطني قدميها. وتشعر رحمة بطشيش النار وكأنه يصل إلى دمها.

أدركت رحمة جفاف أيامها، لا يوجد معها سوى قيمات لا تسند القلب المتعب، طعام جاف، من الصعب بلعه، خبز جاف، قطعة من الجبن القريش، وقطعة من الجبن القديم. حولها المش من كل جانب. وفي كل يوم، تقول: إنها ستحضر شيئًا أخضر من الحقول. يبل قلب ابنها. ولكن وجود الشيء الأخضر في الحقول لم يكن سهلاً.

قررت أن تكلم متولي. أن تقول له إنها غدا ستعطيه معه، في الصباح لقمة بسيطة، يأكلها وقت القيالة. لأنها لن تحضر إليه. ستكون مشغولة طوال النهار، تجهز المحمر والمشمر. الطعام الذي يعوم في نهر من الزبد، الأكل الذي يسند القلب فعلاً. كان الحرمان قد وصل إلى جدار القلب. وكانت رحمة المرأة التي كانت جميلة في شبابها. يطل

الحسن من ملامح وجهها. بدأت التجعيدات تهده، وإن كانت له إضاءة خافتة واهنة تكاد أن تخبو تحت دبيب الزمن وزحف السنوات البطيء.

أصبحت على مشارف الحقل. تبدو الأرض على حدود الشوف. كانت متعبة، وكان جسمها قد أصبح مجاري صغيرة. للعرق الذي تجمع في تجاويف الجسم. كانت قطرات العرق تدرك لها الإحساس بالبرودة، وكانت الملابس قد التصقت بالجسم في أكثر من مكان. جف ريقها، فكرت أن تشرب. ولكنها فضلت أن توفر المياه لمتولي. فهو يشربها لإرواء عطشه الحار. ويشربها لتسهل له بلع طعامه الجاف. الذي يجرح الزور من شدة جفافه. ويشربها لتكمل ملء معدته الخاوية والتي لا يملأها الطعام، دائما.

مفاصلها متعبة. واحتكاك العظام يولد ألما. وصوتًا يصلها واضحًا وقدرتها على تحريك أطرافها تقل. في الطريق. ولكي تقلل إحساسها بالمسافة. كانت تغمض عينيها وتسير قليلاً. ثم تفتحهما. وتحاول أن تكتشف إن كان الطريق الباقي قد أصبح أقل أم لا. وعندما تفتح عينيها. وقبل أن تدرك الباقي من الطريق كان يفاجئها ضوء قوي. يسقط على

عينيها من سماء الصيف الصافية، يسقط في خط مستقيم ويتراقص الحر في ثنايا الخطوط.

ها هو الحقل. وكلمة الحقل تقال تجاوزا، فكل ما لهما قطعة من الأرض مساحتها ستة قراريط. وقطعة أخرى مثلها. كل قطعة في حوض بعيدة عن الآخر. وعلى رأس حقل الجيران يربط الحمار والنعجة وهما كل ما يمتلكانه من البهائم.

شاهدت متولي. بدا مثل العود النحيل المغروز في الأرض. جذوره لا تأكل سوى الطين. في يده الفأس. وكان يعزق الأرض. يبدو أن الفأس هي التي تحرك جسمه الذي كان يتمايل في الجو الحار. وكانت هناك نسمة هواء واحدة. حارة وساكنة. وعندما تحركت ببطء. دفعت جسمه إلى الأمام. كان يرفع الفأس فترسم في الجو الساكن نصف دائرة. وهي تهبط نحو الأرض. كانت تندفع بقوة. ولكنها عندما ينغرس حديدها في الأرض الشراقي، كان يمضي وقت قبل أن يتمكن متولي من رفعها. كان يرفعها على مراحل. يمد يده. يمسح بها حبات العرق. يمر بإصبعه على جبهته، تاركًا حبات العرق تنزل على الأرض. فتتوه في جفاف الحصى.

اقتربت رحمة من متولي. جلبابه الممزق ملتصق بجسمه، خيل لها أنه خارج لتوه من الترعة القريبة. ولكنها تذكرت أن الأيام هي أيام التحاريق. وأن الترعة جافة. والقنوات والمصارف والمساقي لا توجد فيها سوى الحيوانات الميتة، والنباتات التي ذبلت من الجفاف، فأدركت أنه العرق.

نظرت إلى ابنها. سرعان ما يكبر الأبناء من وراء الظهر. بدا متولي ضئيلاً والملابس ملتصقة بجسمه. تاه شكله. ذاب الولد. أكله الشقاء المبكر والجري وراء لقمة العيش، الذي كان عليه أن يقوم به قبل الأوان.

جلست على رأس حقل الجيران. لأن حقلهم الصغير لا رأس له. ونادت عليه. ثم تكلم أصحاب الحقول المجاورة. منذ سنوات وهي تعيش في عزلة لذيذة. محببة إلى نفسها. حضر إليها، ترك الفأس، حديدها مغروس في الأرض ويدها الخشبية تشير إلى السماء فكأنها تطلب منها الرحمة.

المساحة التي عزقها متولي. تبدو صغيرة. وسوادها غامق. والمساحة الكبيرة التي لم يعزقها بعد. تبدو بيضاء اللون. جافة وصلبة ومتماسكة. مثل الأرض المبلطة التي تزين بيت العمدة من الداخل. مع فارق واحد. إن البلاط في

بيت العمدة يشع بالطراوة والرطوبة. والأرض في الحقل جوفها مثل الفرن. إنها تطلب الماء منذ فترة. طال شوقها إليه ولم يبق في جوفها سوى اللهب.

حضر إليها، لم يتكلم، تسلل إليه جفاف مبكر. جعله قليل الكلمات. شحيح النطق. يعبر عن نفسه بالصمت، أكثر مما يتكلم. وفي صمت قامت، أحضرت الجوال الفارغ الذي يوضع على ظهر الحمار بدلاً من البردعة. فرشته على الأرض. ووضعت فوقه الطعام الذي أحضرته. فردت الطعام بعناية وببطء فقد كانت مشغولة بالتفكير فيما ستقوله الآن، لديها رغبة في الكلام. وإن كانت تشعر أنه ربما كان من الأفضل لها أن تصمت عن الكلام. لأن ما لديها لكي يقال أكثير من قدرتها على القول. تزدحم الكلمات على الشفتين. تحتار بأي الكلمات تبدأ. ولا تجد مفرا من الصمت في النهاية. هذا ما كان يحدث من قبل. أما اليوم. فلا بد من الكلام. إلى متى يظل هذا الابن غريبا عنها. إن الصمت يبدو مثل المتاهة. يبعدهما عن بعضهما. ستكلمه عن الأرض والزراعة. والمبلغ الذي ادخرته من أجل زواجه. وانتظارها لحين انتهائه من الجهادية. ستكلمه عن طعام الغد. الذي

سيأكله وقت العصاري. سيعود مبكرا.. ويتناولان الطعام الدسم معا. في الوقت الذي يقع بين الغذاء والعشاء.

مد يده. نحى الطعام جانبا، شرب قلة المياه كلها. سمعت صوت كركرة المياه. وشاهدت تفاحة آدم تعلو وتهبط في زوره. فذكرها بوالده فهبت سحابة ساخنة من الحزن على صدرها. وضع القلة الفارغة على الأرض. سندها بقطعة من الطوب الأحمر. مسح فمه بظاهر يده. لأن قطرات الماء كانت قد تجمعت حول شفتيه. لم يتكرع بصوت عال. بطنه خال من الطعام. ولم يقل الحمد الله. لأنه لم يأكل بعد. قالت في نفسها مياه على لحم بطنه. إن هذا يجلب المرض الذي لا شفاء منه.

ستتكلم هي الآن. ولكنها قبل أن تجمع أحرف الكلمة الأولى. على طرف لسانها. تنحنح الولد الصغير الذي أصبح رجلاً، قائلاً:

ـخلاص.

عكت وجهها علامة استفهام تائهة:

ـمسافر.

لم تفهم ما يقوله. بدا لها الصوت وكأنه يـأتي مـن بعيد. ليتها تعلمت الكثير من أمور الحياة حتى تفهم ما يفكـر فيه هذا الابن. ولكنها تريد أن تتعلم في وقت لا يستطيع الإنسان أن يتعلم شيئًا فيه.

ـتسافر؟!

قال وكأنه يكمل حديثه السابق:

ـمصر.

أشارت للقراريط الستة، الحمار، النعجة. حاولت أن تقول له. وكل هذا من يرعاه؟ ويبدو أن السؤال وصله بدون كلمات.

قال لها:

ـ أجري الأرض، وبيعي الحمار والنعجة.

تساءلت من جديد:

ـأبيع؟

قال لنفسه.

ـزهقت.

نطق الكلمة بمرارة، بدا لها أن حياته تحولت إلـى لحظة من الألم. الذي لا يمكن احتماله أو وصفه.

فتحت فمها، ظل مفتوحا، ولكن الصوت لـم يخـرج منه. كانت تريد أن تقول ما لديها دفعة واحدة. أخوه الأكبـر تزوج وانفصل مع زوجته وكونا أسرة تعيش بعيـدا عـنهم، أخوه الذي يليه. استشهد في الحرب الأخيرة. والولـد الـذي فوق رأس متولي مباشرة، في الجهادية الآن، وباقي أمامـه عامان. والأخت الوحيدة، تزوجت ابن خالهـا. ولأن الحيـاة ضاقت عليهما هنا. أخذها وسافرا إلى البندر البعيد. وعاشـا هناك. الأب مات مبكرا.. أتت بهم إلى الدنيا مثل الأرنبـة. كل طفل في عام، جاءوا إلى الدنيا مثل الأرنبة، كل طفل في عام، جاءوا إلى الدنيا كل واحد فوق رأس الآخر. ولهذا فالولد مفقود بينهم. لا يحبون بعضهم. مات الأب وهي فـي عـز الشباب. فقررت أن يعيشوا كأسرة واحدة مدى الحياة، ولكن الأولاد ما إن كبروا حتى تسربوا من بين أيديها كالمياه فـي رمال الصحاري. الابن البكر. كانت تشعر أنه أخوها ولـيس ابنها، رفيق عمرها. تزوج ولم يطق الحياة معهـا. والثـاني خطفه الجيش. والثالث بعيد عنها الآن. والابنةالوحيدة، مـا إن تزوجت وأصبح لها بيت ورجل حتى أصـبحت بعيـدة. تحضر أحيانا في الأعياد المتباعدة. ولكنها تبدو مثل الضيفة،

وطوال أيام إقامتها، تكون مشغولة بزوجها وأولادها. وحياتها في البندر البعيد.

كانت سعيدة، يتدفق الكلمات من فمها، وكانت تشتعل من بعضها البعض، وقد استراحت على وسادة الصوت. الذي هدأ وقل انفعاله. كانت تتمنى الاستمرار في الكلام طويلاً لولا أنه رفع يده في المسافة بين وجهه ووجهها فماتت آخر الكلمات على شفتيها. وبلعت هي باقي الكلمات، التي تنوي النطق بها:

ـــ زهقت.

قالها من جديد، ولكنها هذه المرة، تحمل الضنى والتعب الذي يعيشه كل يوم.

ومشكلة متولي أن عوده أخضر، وأنه لن يستطيع أن يتحمل كل هذا التعب، فهو يعمل في الحقل بمفرده. لا يوجد معه‌نفر آخر. فقد وصلت أجرة النفر إلى الجنيه في اليوم للصبي الصغير. أما الرجل فأجرته جنيهان. وهناك بعض الأعمال التي لا بد من بهيمة للقيام بها مثل جر المحراث، أو تدوير الساقية. ولا توجد لديهم بهيمة. ولا يؤجر أحد بهائمه. وليس أمامه من حل سوى أن يستدين بهيمة من أحد

الفلاحين. نظير أن يعمل هو عنده بعد ذلك. ويوم البهيمة بيومين من عمله. وهكذا لا تكفي إياه العمر كله، الأعمال المطلوبة منه. إنه ينام في البيت وهو يعد ويحسب الأعمال المطلوبة منه في الحقلين، والأيام التي من المفروض أن يعملها عند الآخرين. وفوق كل هذا. فإن ما يعود إليهما من تعب العام كله لا يكفي أحدهما. إنهما يعيشان على الكفاف.

سيسافر إلى مصر. ليس من أجله وحده. ولكن من أجلها. وافقت على تأجير الأرض أو رهنها. وباعت الحمار والنعجة. وسافرت معه سيكون سعيدا، ورزقه ورزقها على الله. وإن فضلت البقاء هنا سيكون مسئولاً عنها، وسيحضر لها مرتين في الشهر الواحد، قاطعته: قالت إن الولد كبر ويريد أن يخرج عن طوع أمه. أكد لها أنه لم يخرج عن طوعها. وأنها إما أن توافق على كلامه الآن. أو أن يخرج من حياتها كلها. سيرمي نفسه في البحر القريب، أو يشرب التوكسافين، وضعت يدها على فمه، أسكتته، شعرت أن جزءا يموت فيها. جزءا آخر غير الجزء الذي مات يوم استشهد ابنها في الحرب الأخيرة. تحسست بأصابع يدها وجهه. زغب خفيف انتشر على جلد وجهه. نظرت إليه.

طالعتها حالة من التصميم تطل من عينيه. وقبل أن يستسلما للصمت قالت له. والكلمات تتناوب مع الدموع. إنها تطلب منه ألا يسافر. كررت طلبها ثلاث مرات. رد عليها والدمعة التي تتجول في مآقيه ترفض النزول إنه سيسافر إلى مصر. إما أن يفعل هذا. أو يخسر عمره كله. وكرر هذا ثلاث مرات. شعرا بالتعب من الكلمات. وأعطى كل منهما للآخر ظهره، كانت فوقهما شجرة جرداء. عارية من الأوراق. فبدت أفرعها مع خلفية صفحة السماء الباهتة البيضاء، مثل تصاوير الرعب.

وضعت رأسه بين يديه. كان متعبًا، يريد أن يسند رأسه لأي شيء، أما هي فقد ملست بيدها على وجهها. اكتشفت أن الوجه غاية من التجاعيد، وجاشت نفسها بالرغبة في البكاء من جديد. ولكن العين جف ما فيها. وبعد قليل جادت العين بدمعة واحدة مالحة الطعم فتاهت بين خطوط ووديان التجاعيد، كانت الدمعة في انحدارها ترطب جلد الوجه، وكانت تسير حسب الخطوط المتعرجة. تمنت ألا تجف الدمعة بسرعة. وأن تبقى فترة أطول، ترطب الوجه المتعب. ولكن عندما وصلت الدمعة إلى شفتها العليا، كانت

قد جفت. ولم يبق منها سوى طعم الملح الذي تبقى بعد جفاف الدمعة نفسها. راحت تتذوق طعم الملح ببطء. حركت لسانها المتشقق، في فمها الجاف ببطء، وهي تتذوق طعم الملح الذي كان مألوفا في حياتها من قبل.

المؤتمر الصحفي الأخير للفاتنة مباركة

للغريب في القرية رائحة خاصة، شيء ما في مشيته وحركته ونظراته وملابسه يقول لك إنه غريب. فما بالك إن كان الغريب جماعة كبيرة من خلق الله، ومن أصحاب الشعر الأصفر والعيون الزرقاء والجلد الذي يكاد أن يبك منه الدم. ينزلون من أتوبيس أزرق له رائحة حلوة. وزجاج نوافذه رمادي اللون. نزل الغرباء البلد يوم الخميس، وهو اليوم الذي يقام فيه السوق الأسبوعي للبلد. ويقال إن هناك أسبابا جنسية تقف وراء اختيار الخميس يوما للسوق في هذا اليوم، يبيعون ويشترون ويأكلون ويشبعون، يمشون فوق أظافرهم من كثرة الامتلاء، والعلاقة بين الشبع والتخمة والرغبة الجنسية أمر ثابت لدى الفقراء، كان السوق أول ما رآه الغرباء انتبه الناس لهم.

ـ أجانب؟!

قالها واحد من أهالي البلد، الذين يتسكعون في السوق بلا هدف سوى الفرجة على البضائع والنساء. ولكن طالبا لم يكمل تعليمه، قال له:

ـسواح.

اندس بينهما شخص ثالث، صحح الكلمة للطالب:

ـسائحون.

كادت أن تقوم معركة عند مناقشة أي كلمتين هي الأصح. سواح أو سياح أو سائحون. وصول الغرباء إلى مكان السوق أسكت الكل. وتركت الأيادي البضائع. وتوقفت حالات الفصال والقسم بأغلظ الأيمان وطلبات تأجيل الدفع أو تقسيط الأثمان وشكوى ضيق ذات اليد ونظافة الجيوب حتى من الملاليم القديمة الصدئة، وانتظار الفرج. والتأكيد على أن الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله مضمون.

أصبح الغرباء داخل السوق، وسطهم رجل أسمر اللون، بيده عصا قصيرة، مد يده التي بها العصا. أزاح بها الناس ليفسح مكانًا لمرور الغرباء، استغرب الناس من حال الأفندي الأسمر. يتحرك جسمه كأنه قد أصابته رعشة. يتكلم مع الناس العربية. ومع الغرباء يرطن باللسان الأجنبي.

أشار له الطالب الذي لم يكمل تعليمه:

ـمصر مثلنا؟

أكمل الآخر بعد أن تبينوا أنه لن يرد عليهم أبدا:

ـــ وإن كان بداخل فمه أكثر من لسان.

أشار الأفندي الأسمر للسوق والناس واستدار للغرباء، كلمهم بلغة لم يفهمها أحد. قال الطالب للناس:

ـــ دليل سياحي.

عاد الرجل المتسكع إلى الظهور:

ـــ بل ترجمان.

ارتفعت أيادي الغرباء وفيها آلات تصوير من أحجام مختلفة، ولأن التصوير له قدسية عند سكان البلد، كتموا أنفاسهم في صدورهم، ولم يعد يسمع سوى تكتكات آلات التصوير، لمعت أضواء التصوير فأصابت الناس رجفة.

قال سمسار السوق:

ـــ أين مباركة؟

بحثوا بأعينهم عنها ولكنهم لم يجدوها.

أكمل السمسار:

ـــ صورتها تصبح صورة تذكارية.

لكل قرية في ريف مصر مباركتها الخاصة بها، مخلوقة لا يعرف أحد أهلاً لها، ولا من أين أتت ولا متى، ذات يوم لا يذكره أحد نبتت من الغيب، وخرجت من رحم

المجهول. تحضر قبل ظهور فجر يوم السوق. وتختفي مع اللحظات الحزينة التي ينفض فيها السوق، لا يعرف أحدا أين تعيش ولا ماذا تأكل، لم يتكلم شخص واحد عن حالتها، وهكذا تركت مباركة حتى أصبحت مثل الحيوان المتوحش، وأصبح الناس ينفرون منها، وفي الأيام الأخيرة كانت مباركة تأتي في صمت وأسى دون كلام، وعندما كان أحد يدفعها لأن تتكلم. كان يكتشف أنها بدأت تنسى عادة الكلام، وعملها في يوم السوق معروف للكل، تحضر، تحمل في يدها منقد به نار. تضع فيها البخور من مخلاة تكون معلقة في كتفها الأيمن، تقترب قليلاً من البخور في المنقد، وتنفخ في النار بفمها وتدير المنقد، تحركه، فيتصاعد منه البخور ويملأ المكان، تمتد يد البائع ويعطيها حسنة مما يبيعه وفي آخر يوم تجد معها من كل السلع التي كانت تباع في السوق، رغيف، قطعة لحم، حبة طماطم، عود جرجير، قليل من الذرة، قطعة قماش بحجم كفي اليد، شعرها منكوش على شكل خيوط غليظة، حول فمها زبد دائم، خيوط العرق على وجهها تعلوها أتربة لزجة، وعيناها حمراء من أثر سهر له صفة الدوام، في لحظة التصوير بحث عنها أكثر من واحد بعينه،

ولكن أحدا لم يجدها، بعد التصوير تبودلت كلمات بين الدليل والغرباء، هم يسألون وهو يجيب، الأسئلة مصحوبة بالدهشة وعدم التصديق المسبق وتقال بسرعة، الإجابات ممطوطة وطويلة. فسر الناس ذلك بأن الترجمان يحاسب السياح بالكلمة، الكلمة الواحدة بسبعة قروش، ولهذا من صالحه أن يمط حبل الكلمات، رد الطالب على الواقفين، قال إن الدليل أو الترجمان لم يتعلم لغة السياح في المدارس، ولا يحمل شهادة، ولكنه عرفها أبا عن جد، والده يعمل في منطقة الأهرامات جِمالاً أو حمارا، ولهذا فهو لا يعرف لغة السياح على أسس علمية سليمة، وهذا هو السبب في مطه الكلمات.

دخل الغرباء السوق. داست أقدامهم التي تبدو عارية للعيون وتظهر الأظافر الملونة واضحة من خلال الأحذية المثقوبة التي يلبسونها. داست على أرض متسخة، اندست في روث البهائم، وأطارت كتل الذباب، نظروا بدهشة إلى أكوام البصل الأخضر، وأواني المش وتلال الغلال، وباعة الكحل وزجاجات زيت الشعر الملونة. عند توقفهم أمام أي بائع كانوا يتساءلون وتشير أصابع أيديهم ذات الأظافر الطويلة

والمغطاة بالشعر الأصفر والنمش الأحمر، ادعى الطالب أنه فهم ما يقولونه للترجمان:

ـــما هذا؟

وأن الترجمان يشرح لهم الحال في السوق، هذا تاجر الأقمشة وهذه بائعة الجبن القريش، وهو نوع من الجبن يصنع محليا وبطريقة بدائية للغاية. أخرج بعض السياح الدفاتر والأقلام. أخذوا يسجلون ما يقوله الترجمان وهكذا مر المركب على السوق، في أوله يقف بائع الطعمية الطازجة الساخنة، نظروا في الطاسة، أطلوا على الزيت الذي اسود لونه من كثرة الاستعمال وشاهدوا من يشترون منه الأرغفة الطرية البيضاء من العيش السوقي أو عيش البنادر، ولا يجدون ثمن الطعمية، يلفون عيش السوق الطري والأبيض، بداخل عيشهم الجاف والأسمر ويأكلون، في جانب من السوق شاهدوا خناقة، بين رجل فقير رفيع الجسم دقيق الملامح، ورجل غني ضخم الجثة شرس الملامح. أنزل الرجل حماره من فوق حمارة الفقير، قص لهم الترجمان قصة الخناقة. الفقير لديه حمارة طلبت الذكر وأعلنت عن تلك الرغبة بأكثر من وسيلة، ولأن الفقير يتطلع دائما إلى ما بيد الغني، انتظر

يوم السوق. أحضر حمارته. أوقفها أمام ركوبة أحد الأغنياء، لعل وعسى، شمها الحمار، وبقفزة واحدة أصبح فوقها، أمسك الحمارة من ظهرها بأسنانه، حضر الغني، غضب وثار، كثرة الجماع قد تقتل الحمار الركوبة، ونسله يخص الأغنياء وهو لم يخلق لحمل السباخ والذهاب إلى الحقل ولا يجب أن يتعرض نسله لمثل هذا الذل المهين. أنزل الحمار من فوق الحمارة.

وفُضت الخناقة بينه وبين صاحب الحمار، بعد أن انتهى الترجمان من حكايته اقترب السياح من نسائهم، الشفاه متلاصقة مع الآذان، والهمس لا يسمعه أحد. الضحكات الفاجرة كشفت عن نوعية ما قيل من الكلمات. أقسم الطالب أنه سمع امرأة سائحة تقول لرجلها أن الحادثة ستساعدهم على قضاء ليلة جنسية ممتعة بمجرد العودة إلى الفندق. ودون الحاجة إلى أية إشارات.

عند الجزار، توقف الركب، صاح الطالب:

ـ مباركة

أشار ناحيتها، كانت تجلس بجوار فضلات الذبيحة. من البراز والدم والجلد والعظام، أشارت الأيدي لها فقامت من جلستها، اقتربت من الغرباء:

ـــ أهلا يا أسيادي.

منذ فترة طويلة. هذه أول مرة تنطق بها. كثيرا ما حاولوا استنطاقها ولكنهم فشلوا، هذه المرة تكلمت من نفسها، ودارت بينهم. همس رجل لامرأة بكلمات لم يسمعها أحد. فانطلقت المرأة في ضحك خليع، لمعت في الجو أضواء آلات التصوير. التقطوا لمباركة عدة صور، أوقفها السمسار، يطلب منها النظر ناحية الغرباء، رسمت على وجهها ابتسامة بلهاء، نظرت كل عين من عينيها في اتجاه معاكس لاتجاه العين الأخرى، فاكتشف في هذه اللحظة فقط أنها حولاء، ومن حرارة الأنفاس وزحام الأجساد حولها واهتمام الكل بها، مدت يدها، تصوت أن أحدا وضع شيئًا في يدها، قبضت أصابعها، اكتشفت أن لا شيء في يدها سوى الفراغ، اتسعت الابتسامة البلهاء وهي تسمع أصوات غريبة لم تألفها من قبل، حاولت أن تفهم ما يقال. ولكنها فشلت في ذلك، تقدمت سائحة من الترجمان وكلمته، لم يفهم أحد بالطبع ما قالته، من

نقل إشارات يدها فهموا أنها تطلب منه وقوف مباركة بجوار الذبيحة حتى يصوروهما معا، احتار الترجمان قليلاً، ثم رغبة السائحة إلى الطالب السابق. الذي اندفع في لحظة خاطفة نحو مباركة، أخذ منها المنقد، وجد صعوبة في ذلك، تمسكت به في عنف، ولكنها لم تستطع مقاومة قوة الطالب، جذبها الطالب نحو الذبيحة، أوقفها بجوارها، مد يده لكي يعد الثوب الذي ترتديه مباركة حتى تختفي الخرق التي تبدو منها أجزاء من جسمها، السائحة رفضت ذلك، طلبت أن تبقى مباركة كما هي. وأعادت لها منقد البخور، شرحت للترجمان فكرتها، قالت إن هذه الصورة ستكون أحسن صورة في الرحلة كلها، تكلمت عن السحر الشرقي في مثل هذه الصورة، مباركة، اللحم النيئ، دخان البخور، الجزار بشاربه الضخم ولحم ذقنه المتهدل على صدره، أوقفوا مباركة على يسار الذبيحة والجزار على يمينها، نفخ الطالب في المنقد، ومد يده في الكيس المعلق في كتف مباركة، وأخذ كثيرا من البخور، وضعه في النار، ارتفع الدخان، أبعد الترجمان الناس الذين تجمعوا حول الجزار. اتسعت الدائرة والتقط

السياح الصور التذكارية للمشهد الفريد، قالت إحدى السائحات كلمة تصف بها مباركة.

أكد الطالب أنها قالت:

ـ الفاتنة المصرية مباركة.

طلبوا من مباركة أن تلتصق أكثر باللحم، ومدوا أيديهم يقربونها من الذبيحة التي لم يكن قد بيع منها شيء حتى هذه اللحظات، التصقت تجاعيد خد مباركة باللحم تماما، وصلتها رطوبة وأحست بملمس قطرة دم تنساب خلال تجاعيد الوجه، وعبق أنفها برائحة اللحم النيئ الذي لم تشمه أو تمسه يدها منذ سنوات، جرى ريقها، بلعته أكثر من مرة، تحركت مصارينها في بطنها، أحست بضعف، ارتعشت، اقتربت أكثر من اللحم وسمعت كلمات استحسان تطلب منه الالتصاق باللحم أكثر، وغاص نصف وجهها في فخذ الذبيحة ورأت بالجزء المتبقي من العين اليمنى مساحات حمراء وأخرى بيضاء من الذبيحة، حاولت أن تدرك الفارق بين المساحات البيضاء والحمراء، خيل إليها أن المساحات الحمراء بها بقايا دم الذبيحة، ولكنها أدركت سخف تفكيرها، عندما تذكرت ما يقوله الناس للجزاء، أنهم لا يحبون

المساحات البيضاء لأنها سمينة، إذن فالبياض هو الدهون. أنها نادرا ما تشم اللحم، أما أن تأكله فتلك مسألة أخرى، ما تأخذه من جزاري البلد صدقة يوم السوق تبيعه لبعض الذين لا يقدرون على الذهاب إلى الجزار، وهم لا يشترون اللحم منها بالأموال التي لا يعرفون شكلها، وإنما بالمقايضة، يعطونها ما يزيد عن حاجتهم مقابل قطع اللحم. وأثناء لمعان الأضواء في جو السوق، كانت مباركة تفكر، ربما أول مرة منذ سنوات تحاول استخدام ذهنها فيها، وكان تفكيرها يدور حول أمر واحد، ما هي آخر مرة أكلت فيها اللحم، إنها تأخذه من بيوت المقتدرين مطبوخاً جاهزا، ولا تعرف كيف يتم طهوه وتحويله إلى هذه الصورة، لف السياح في الدائرة التي تحيط بمباركة والذبيحة والجزار، صوروا المشهد الصامت من الجوانب الأربعة، ومن أسفل ومن أعلى، تفننوا في البحث عن الزوايا المثيرة، وصلت سعادتهم إلى ذروتها وهم يجدون زوايا عظيمة لالتقاط هذا العدد الضخم من الصور، اقتربت واحدة منهم من مباركة لدرجة أن آلة التصوير كادت أن تدخل في عيني مباركة وهي تصورها، ويبدو أن السياح

قد شبعوا من التصوير، لأن أيدهم بدأت تعمل ببطء، وبدأوا كما لو كانوا قد فقدوا حماسهم.

تحرك الجزار مبتعدا عن الذبيحة، وهو سعيد بالصور الكثيرة التي أخذت له، كان يفكر في طريقة يحصل بها على واحدة من هذه الصور، ولم يكن يضايقه سوى وجود مباركة معه في الصورة، نظر إلى الذبيحة، مباركة ما زالت واقفة بجوارها، ولأن مباركة مخلوق لا يستحق أن يتعامل معه بالكلمات أشار إليها أن تبتعد، ذهب السياح وانصرف خلق الله وانتهت حكاية التصوير ولتنصرف بالتي هي أحسن، لم تتحرك مباركة، بدا عليها أنها لم تفهم الأمر، قال في نفسه، اللعبة أعجبت المجنونة، وكانت تلك أول مرة توصف فيها مباركة بالمجنونة، ودفعها الجزار بيده، لم تبتعد عن اللحم، حضر زبون وطلب نصف كيلو لحم وربع عظام، أمسك الجزار بالساطور اقترب من الذبيحة، لم تتحرك، اقترب بالساطور من وجهها، لم تبال أبدا، شخط فيها، شتمها، طلب منها أن تمشي، مباركة بدا عليها أنها لم تعد تدرك ما يحدث حولها. كانت تنظر في الهواء البعيد وضع الجزار الساطور، اقترب منها، كان جلد وجهها قد أصبح بلون اللحم،

وبدا كأنه جزء منه، أفهمها أن ذلك خطأ، وأنها تقطع رزقه بهذه الوقفة، وأن زبائن هذه الأيام قلة ويطلبون كميات بسيطة، مما يضطره آخر اليوم إلى البيع بأسعار رخيصة وأحيانًا شكك، وأنه لم يبخل عليها من قبل، وهو يحبها كابنته تماما، ويعطف عليها، مباركة بدلاً من أن تسمع كلامه، أدخلت وجهها في اللحم أكثر، وصل اللحم إلى أسنانها، غرزتها فيه، تذوقت طعم اللحم النيئ الممزوج بالدم، يبدو أن الطعم أعجبها، فقد أخذت تأكل من اللحم، الأمر الذي دفع الزبون إلى المشي، ورفض أن يأخذ اللحم بعد أن شاهد ما فعلته مباركة، تركه الزبون وانصرف، حكى ما شاهده لكل من قابله، تجمع الخلق من جديد، هاج الجزار، هجم عليها، حاول أن يبعدها عن الذبيحة بالقوة، فشل في ذلك، يقول من شاهد الحكاية أن مباركة بدت وكأنها أصبحت جزءا من الذبيحة، تدخل الآخرون، لم يفلح أحد في فصلها عن الذبيحة، وعندما رفع الجزار يده بالساطور محاولاً أن يفصل بين مباركة وبين الذبيحة بالقوة نبهه الناس إلى خطورة ما يفعله قد تصاب مباركة أو تموت، وهي وإن كانت مقطوعة من شجرة، إلا أنها إنسان وهذا يسبب له مشاكل أكبر منه، ربما

يصل الأمر إلى البوليس، تراجع الجزار وبانت الحيرة على وجهه، كلمة من أحد الواقفين أنقذت الموقف.

ـــبلّغ العمدة.

شاهد السياح الحمار والحمارة حتى شبعوا من المشاهدة، اقترح عليهم الترجمان أن يذهبوا إلى أحد الحقول لمشاهدة الماء والخضرة، وحيث أصحاب وجوه حسنة، تكون قد اكتملت سعادة الدنيا كلها، اتجهوا إلى أقرب الحقول، ذهب معهم السمسار، قال الناس لا بد وأن وراءهم فائدة ما، في الطريق، اقترب السمسار من الترجمان، قال له: أنت تحب التعارف. من الذين معك؟ ولماذا حضروا إلى قريتنا؟ وما هو الهدف من زيارتهم؟ قال له الترجمان، إنه مندوب شركة كنوز مصر وهي شركة سياحية أمريكية مصرية مشتركة هدفها الكشف عن كنوز مصر المخبأة والتي لا نعرفها نحن أبناء مصر، والشركة تقدم هذه الخدمة لمصر لوجه الله تعالى وبدون مقابل، وبغير هدف في الربح، وهي إحدى شركات الانفتاح الاقتصادي، ومعه مجموعة من السياح الأمريكان حضروا كتعبير عن المحبة والتعاون بين الشعبين وحيث إن مصر بلد مفتوح ويجب تشجيع الحركة السياحية، التي ستحل

كل مشاكلنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحتى النفسية، فقد وجد في مصر ولأول مرة في تاريخها منذ القرن العشرين قبل الميلاد، نوع جديد من السياحة، سكت الترجمان وقال ببطء:

ـــ السياحة الريفية.

أكمل، أن هذا الفرع من السياحة سيكون أهم أنواعها كلها، في أمريكا البلد الذي حضر منه السياح، ناطحات سحاب، وصورايخ صناعية وصلت إلى القمر، وأحدث آلات التجسس، وإنسان آلي يعمل ما يطلب منه، ولكن لا يوجد فيها قرية مثل هذه القرية، إن ما في القرية هو ما يميز أصالة مصر في مواجهة حضارة هذا العصر المزيفة، إنني أسال: هل عندهم روث بهائم؟ هل عندهم سوق مثل هذا السوق؟ هل لديهم فقر واحتياج؟ هل عندهم طعمية؟ ثم هل يوجد في كل ولايات أمريكا مثل مباركة؟. لقد أعجبوا بها لدرجة أنهم سموها الفاتنة مباركة. هل في أمريكا تراب في الأرض وغبار في الهواء؟ إن السياحة الحقيقية هي أن نقدم ما يميزنا في مواجهة ما يميز البلد الذي حضر منه السياح.

وهكذا ذهب السياح إلى الماء والخضرة.

وفي البلد توجه الجزار إلى العمدة، الذي وجد نفسه في مواجهة مشكلة من نوع جديد، ولم تحدث من قبل، أرسل أحد الخفراء ليحاول فصل مباركة عن الذبيحة، بعد محاولات ومداولات ومباحثات ومشاورات رجع الخفير إليه يخبره بفشله، نفس الشيء حدث عندما أرسل العمدة شيخ الخفراء وشيخ البلد ونائبه، انتهى وقت السوق وبارتْ الذبيحة والخسارة أصبحت مؤكدة بالنسبة للجزار، لم يجد العمدة بدا من الانتقال بنفسه إلى مكان الذبيحة، وهناك حاول الكلام مرة والتهديد مرة أخرى بالضرب، والتلويح بالسكين والعصا والنار والطرد من القرية. أشار ناحية السماء، مؤكدا لها أن عقاب الله لن يتركها أبدا، عرق العمدة وانتفخت عروق رقبته، الهواء ساخن ملتهب، تلك أول مشكلة يفشل في حلها، وعلى مرأى ومسمع من أهل البلد كلهم، والغريب أن المشكلة تبدو لا حل لها أبدا.

فجأة قال الطالب الفاشل:

ـــ مباركة، أصابها مس.

أكمل تومرجي المجموعة الصحية

ـــ تبدو على وجهها علامات الجنون كلها.

ـ والحل؟!

نبلغ مستشفى المركز لترحيلها إلى السراي الصفراء.

أضاف شيخ الخفراء:

ـــ مباركة أصبحت تشكل خطرا على الأمن العام في البلد من الآن.

حضرت سيارة الإسعاف وبها الممرضين وحملة النقالات، حاولوا فصل مباركة عن الذبيحة، اكتشفوا أن ذلك مستحيل، ضربوها، ولكن أصابع يدها وأسنانها ماتت على قطعة اللحم، بعد دراسة الموقف من كافة جوانبه، قرروا، ترك جزء من الذبيحة يلتصق بها، وفصل ما يمكن فصله من لحمها، كمحاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه للجزار، بدأ الممرضون عملهم يساعدهم الجزار، كانت الصورة مؤلمة والطالب الفاشل كان أكثر الحاضرين ألما ومرارة، لأن أحدا من السياح لم يصور اللحظة الرهيبة، وجه مباركة أصبح جزءا من بقايا الذبيحة، تجري عليه خيوط الدم التي اختلطت بدموعها ومخاطها، كان من الصعب التفرقة بين الوجه ولحم الذبيحة، أحضروا الكتاف، قالوا لها: إنهم أحضروا جلبابا من أجلها، تم تفصيله على قد جسمها، ورغم عدم التصديق الذي

بان على وجهها، إلا أنها فرحت، اقتربت من الكتاف، وهو القميص الذي يلبسه المجاذيب وعندما لبسته، هاجت، وثارت. الأيدي حاصرتها من كل ناحية، قبل أن يتحركوا بها، ثار الجزار، من يعوضه عن اللحم الذي أخذته معها؟ احتار الكل، لا أحد لها حتى يدفع، والعمدة لا دخل له، ومستشفى المركز الذي ستذهب إليه الآن مجرد موصل إلى مستشفى المجاذيب الرئيسي في مصر، فكر العمدة وقال:

ــ خذ من السياح الأمريكان، هم السبب.

استطرد أحد الواقفين:

ــ سيدفعون لك بالمال الصعب، عملة أيامنا.

تناقشوا كثيرا حول عملة الأمريكان، اختلفوا، وانتهى النقاش بعودة السياح من مساحات الماء والخضرة، بالقرب من السوق، كانت الفاتنة مباركة تجلس على دكة من الخشب مربوطة بالحبال الغليظة ويبدو القميص ينز منه الدم، على شكل قطرات حمراء، يقف على يمينها خفير يعلق بندقية على كتفه، وعلى يسارها خفير يعلق بندقية على كتفه، أمامها، وعلى بعد ثلاثة أمتار، يجلس الأطفال والصبية والشيوخ، وحولهم طابور من الخفراء يمنعونهم من الاقتراب

من مباركة. أكثر من اللازم، بين الحين والآخر كانوا يعاكسون مباركة، يقولون لها: مع السلامة، نراك بخير، صبرت ونلت، البعض منهم حسدها على السيارة التي ستركبها، سيارة خاصة تنقلها إلى مستشفى المركز. وسيارة خاصة أخرى من مستشفى المركز إلى السراي الصفراء في مصر، أحيانا كان يقذفها الأطفال الذين يجلسون في الخلف بقطع من الطوب، وبمجرد أن تصطدم بها الطوبة كانت تنتفض، تصحو من غفوتها، تفيق، يختلج الوجه ويخرج حول الفم زبد جديد، وبعد الزبد الأبيض تخرج من بئر الفم أصوات غير مفهومة، اقترب السياح من المشهد، لم يعرفوا الجالسة التي ينز منها الدم، أشاروا لها وسألوا الترجمان:

ـــ القديسة مباركة.

سألوا عن الخفراء والسلاح:

ـــ حرس الشرف.

والحاضرون من الناس:

ـ أصحاب الحاجات والمرضى.

وطبيعة الجلسة:

ـــ تأملات آخر الزمان، فيما جرى للبلد.

تكلم أكبر أعضاء وفد السياح، وترجم الدليل كلامه:

ـــالقديسة مباركة تعقد مؤتمرا صحفيا تتكلم فيه عن أحوال البلد.

غطت وجوه السياح طبقة من الاهتمام والدهشة. خرجت آلات التصوير والدفاتر والأقلام. وبصوت عال أعلن الترجمان للحاضرين أن القديسة مباركة رفع عنها الحجاب. وأنها ترى الغيب وتعرف ما قد يحدث بعد آلاف السنين، وهي الآن في حالة تأمل. تعيش تأملات آخر الزمان. ومن حق الحاضرين أن يوجهوا إليها ما شاءوا من الأسئلة وأن يلقوا بين يديها بهمومهم وآلامهم ومتاعبهم. وسترد القديسة مباركة على كل سؤال يوجه إليها.

س: ـــ هل نعيش حقًا في آخر الزمان؟

ج:ـــ.....

س: ـــ أعطاني الإصلاح الزراعي أرضا. وبعد عشرين سنة أخذها مني نفس الإصلاح الزراعي ليعطيها للإقطاعي، صاحبها القديم وتركني بدون أرض وبدون حياة.. ماذا أفعل؟

ج: ـــ .....

س: ــ ذهب ابني للحرب التي سموها حرب التحرير، ورغم احتفالات النصر، لا أعرف حتى مكانه. إلى الآن وكلما سألت عنه فكانوا يجيبونني بثلاث كلمات:

ــ جاري البحث عنه ــ

س: ــ وإلى متى يستمر البحث عنه؟

ج: ــ.....

س: ــ كل أهالي البلد مقدمون للمحاكمة بتهمة مخالفة الدورة الزراعية والغريب أنهم بدلاً من مناقشة الأمر معنا أسرعوا بعمل إجراءات للمحاكمة.

ج: ــ.....

س: ــ مات زوجي وهو يقوم بتجريف الأرض الزراعية ليصنع منها الطوب. وبدلاً من تقديم المساعدة إلي .. وجدت قضية مرفوعة ضدي. التجريف جريمة عقوبتها الحبس ولأنني وريثته رفعت القضية.

ج: ــ.....

س: ــ نسمع كثيرا عن قرى دخلها النور وبها حنفيات المياه للشرب. وجمعيات تعاونية لبيع السلع التموينية. وبعض القرى يقولون إن بها مدارس وأطباء وأنه يربطها

بالدنيا طرق مرصوفة. ولكن قريتنا لا شيء فيها سوى المدرسةومستشفى لم يحضر لها طبيب منذ زمان بعيد ومضى.

ج:ـ.....

س: ـ أحلم بالليل أني أباع في المزاد العلني.. وأن المزاد لم يرس على أحد..

ج:ـ.....

س: ـ شاهدت أمي في الحلم وهي تضاجع رجلاً غريبا، كانت سعيدة به تلهث تحته، وعندما اقتربت منه محاولة منعه، ضربني..

ج:ـ.....

س: ـ هل هناك أمل في شيء؟

ج:ـ.....

نظرت سكت الحاضرون، مرت فترة لم يرفع فيها أحد يده عن يطلب حق السؤال، تأكد السياح من أن أحدا لن يسأل، السائحة إلى الترجمان، كانت مندهشة، لأن أحدا لم يسأل الأحوال المصيرية، لم يتكلموا عن عودة الأحزاب السياسية، وهل يرضى جيش مصر عن الصراعات الحزبية وأرض

مصر ما زالت محتلة، ومؤتمر جنيف، وهل يعقد أو لا يعقد في هذا العام، وطبول الحرب متى تدق في المنطقة، وانقلابات هذا العام، متى ستقع؟ إن الناس لا يفهموا مشاكل الحياة إلا بشكل حسي، أي كل ما يتصل بالحياة اليومية.

قال لها الترجمان:

ــ الناس تريد أن تعيش أولاً..

أكمل الترجمان:

ــ ثم. ماذا يريد الإنسان لكي يعيش يا سيدتي الأمريكية. القادمة إلينا عبر الأطلنطي، إنه يريد منز ًلايسكنه وملابس تستر عورته وطعاما يقدم إليه ثلاث مرات في اليوم ومكان عمل يذهب إليه كلما اشتد به الحنين، وبعد هذا لنقل على الدنيا السلام.

ارتفع صوت الترجمان أكثر وهو يقول:

ــ بعد أن تمتلئ المعدة، يفكر الناس، تلك قاعدة أساسية.

تعجب السياح، ودون بعضهم في مفكرته هذه القاعدة الهامة التي ذكرها الترجمان، ووضع البعض تحتها أكثر من خط بالقلم الأحمر، وقال واحد منهم إنها ستكون عنوان

تقريره الذي سيرفعه إلى الجهات المعنية عن رحلته إلى مصر أم الدنيا، وبلد العجائب.

تساءل السياح عن مصير القديسة مباركة، قيل لهم إنها على سفر ذاهبة إلى مصر، قال السياح: إذن تركب معنا. تعجب الناس من تواضع السياح، خاصة الأمريكان منهم، تقدم شيخ الخفر من الترجمان أفهمه أن هناك سيارة خاصة ستركبها مباركة، ولا بد من ذهابها بها إلى المركز أولاً، وبمجرد الانتهاء من بعض الأوراق المطلوبة في مثل هذه الحالات ستتحرك مباركة فورا، قال السياح إذن سننتظر حتى نمشي معها إلى المركز على شكل موكب رسمي، سيارة القديسة مباركة أولاً، ثم سيارتنا بعدها. وقد ننتظرها في المركز لكي تسافر معنا إلى مصر أم الدنيا. قال السمسار دون أن يدري قد تسافر معكم إلى أمريكا، كتحفة مصرية.

وفي آخر ذلك اليوم العجيب، والذي لن تنساه البلدة بعد ذلك أبدا وستظل لأيام طويلة قادمة تتذكره وتعيد خلقه وتحكيه وترويه وتتكلم عنه. وقفت سيارة الإسعاف البيضاء في السوق الحالي، وألبسها الممرضون ملابس بيضاء جديدة غير تلك التي تلوثت بالدم. بعد أن فكوا الحبال من حول

وسطها، استسلمت مباركة للقماش الطري، حملوها فوق نقالة، وضعوها داخل سيارة الإسعاف، ووقفوا بجوار السيارة يوقعون بعض الأوراق الخاصة بتسليم مباركة ركبت سيارتها في موكب رسمي مهيب، يدفع بالبهجة إلى النفوس، وأن البياض في لون السيارة والحرس والمحفة وملابس مباركة نفسها، يؤكد قدسيتها وشفافيتها، ركب السياح سيارتهم الفاخرة والتي يفوح منها العطر وجلسوا خلف الزجاج الرمادي. الذي قيل للناس في البلد إنه زجاج سحري. الراكب في الداخل يرى الناس الذين بالخارج ولكن المشاهد من الخارج لا يرى شيئًا بالداخل، كان آخر الذين صعدوا إلى الأتوبيس الفاخر هو الترجمان. وقف على الباب قبل أن يضغط السائق المحترم على زر بجواره فتغلق كل الأبواب مرة واحدة محدثة صوتًا ناعما. قال الترجمان:

ــ والآن. سيداتي سادتي. إن القديسة مباركة بعد أن تعبت من العمل، تتأهب للسفر إلى مصيفها الهادئ لقضاء الويك إند.

سارت سيارة الإسعاف تضرب جرسها، وخلفها الأتوبيس الفاخر. ضحك الناس في البلد، وقالوا إن المجنونة

مباركة تتصدر الموكب الرسمي للسياح. حسدتها النسوة. فهي مسافرة على أي حال، وهذا أفضل من البقاء هنا، في الشارع الرئيسي مرت السيارتان، عند آخر البلد، كان هناك جمع من الناس يودع مباركة وسيارة السياح، وقف وسطهم مدرس اللغة العربية، قال بعد أن توارت السيارتان، وأصبحا على الطريق الرئيسي ولم يعد أحد يرى سحابة الغبار التي تعلن عن سيرها:

قال مدرس اللغة العربية، وكأنه يلقي درسا على تلاميذه في الفصل:

ـ والسائح يا ولدي هو الشخص الغريب المسافر الذي يحضر إلينا من البلاد البعيدة ويقضي في أرض الكنانة مدة لا تقل عن اليوم الواحد، ولا تزيد عن السنة، وتكون إقامته مؤقتة، وهدفها الوحيد هو الفرجة على عجائب أم الدنيا مصر. وينفق خلال هذه الفترة أموالاً كثيرة بالعملة الصعبة. في التاكسيات والشقق المفروشة والملاهي الليلية ومطاعم الدرجة الأولى السياحية وبين أفخاذ النساء، ولدى محال بيع الخمور، وتحف خان الخليلي. وقد كان تشجيع السياحة من أهم وأخطر بنود سياسة الانفتاح الاقتصادي.. خاف الواقفون

حول مدرس اللغة العربية الشاب. أخذه واحد منهم، قال آخرون بعد أن ضربوا كفًا بكف إنهم يخافون عليه من لعنة السياح اليوم، الخوف الفعلي أن يلحق بالمجنونة مباركة..

ـــ تقصد الفاتنة.

ـــ لا أقصد القديسة مباركة.

رد□ مدرس اللغة العربية الشاب قبل أن ينصرف:

ـــ الحق أننا نقصد مباركة طبعة ٧٧٩١.

كما تكتب القصص السياسية الرديئة

قراءة الفاتحة

في المساء وصل المرشح المحترم إلى البلد، سأل عن بيت مقاول أنفار التراحيل، دله العاطلون عليه، وسرى خبر وصوله في البلد بسرعة، في بيت مقاول الأنفار المبني حديثا، جلس المرشح المحترم والمقاول السمين بمفردهما في حجرة مكتبه. انتظر الباقون في مندرة الضيافة. لم يدخل عليهما أحد من أتباع المرشح المحترم أو أحد من أتباع المقاول السمين. الذي دخل فقط كان صبيا ينادونه باسم فتاة، يقدم الشاي والقهوة لضيوف المقاول، دخل بمشيته اللينة وصوته الرخو. ويقولون إن المقاول هو الذي دربه على ذلك. قدم القهوة، ثم دخل وقدم الشاي، قبل حلول المساء عرف كل الناس ما دار في غرفة المكتب.

تنحنح المرشح المحترم وسأل المقاول:

ـــ كم رأسا في البلد؟

رد عليه:

ـــ خمسة وعشرون ألفًا.

ـــوكم لهم حق الانتخاب؟

أوضح أنه يقصد المقيدين في الجداول الانتخابية.

سكت المقاول برهة قبل أن يرد:

ـــست آلاف وأربعمائة وخمسة وسبعين صوتًا.

أفهمه المقاول أن كسور الرقم ستكون عجوزات، ولأن المرشح المحترم ليست له خبرة سابقة في هذه المسائل، استفهم من المقاول عن حكاية العجوزات، رد المقاول: العجوزات هم أصحاب الأصوات غير الموجودين، مرضى، مأموريات، مسافرين، تركوا البلد ولم تتخذ إجراءات نقل قيدهم في مقرهم الانتخابي. وأصبح ذلك مستحيلًا بعد أن بدأت بوادر المعركة. البلد بها ستة آلاف صوت فقط. سأله المرشح الذي كان يلبس بدلة لم ير مثلها أحد في البلد من قبل. عن موقف هذه الأصوات، تريث المقاول قبل أن يجيب، شغل نفسه بإشعال سيجارة مستوردة ومذهبة، حاول المرشح الذي كان يضع على عينيه نظارة يقولون في الناحية إن إطارها من الذهب، أن يشرح الحكاية، قال إنه يقصد بموقف هذه الأصوات، العائلات، التكتلات، العصبيات الموجودة، كما أنه يسأل عن معارك الثأر والخلافات الجديدة، ومدى

تأثير كل هذا على المعركة الانتخابية التي ستدور، فهو يجلس الآن في إحدى القرى الصغيرة، والدائرة التي رشح نفسه فيها بها حوالي ثمانية عشر قرية ومركز واحد، وهو لا يطيق الحياة في ريف مصر، ولا يستطيع أن يتصور كيف يعيش الناس فيه، لأنه يعيش في مصر منذ مولده، لذا لا توجد عنده خريطة سليمة للعلاقات الموجودة في الدائرة. حضر من مصر ومعه كشف به حوالي عشرين اسما. قيل له إن الدائرية في جيوبهم، أوقفت حديث المرشح ضحكة عالية مجلجلة صدرت من المقاول، اهتز معها كرشه الضخم، وقام بعمل نفس الحركة التي شاهدها المرشح المحترم من التسعة عشر مقاولاً الذين قابلهم في نفس اليوم. مد يده، أشار إلى جيب صغير، فوق القلب مباشرة، يبدو جزء من الجيب فقط، والجزء الباقي يتوه تحت العباءة الغامقة اللون، والتي تشي بدرجة غنى المقاول ومدى ما وصل إليه، امتدت أصابع يده اليمنى، بين إصبعين منهما بقايا السيجارة المحترقة وأواخر إصبعيه وأظافره أصابها لون أصفر من كثرة التدخين، أشار بالسيجارة إلى الجيب وقال:

ــ الستة آلاف صوت في قعر الجيب.

مقاول المرشح المحترم مثل أم العروسة، مشغول حتى قمة رأسه، وراءه آلاف الأعمال، تم الاتفاق سريعا. طلب الأنفار الذي اغتنى فجأة في السنوات الخمس الأخيرة طلبين، البند الأول معنوي. والبند الثاني مادي، البند الأول المعنوي، خدمة عامة تقدم لأهالي البلد فورا، تضمن أصواتهم دون مناقشة، والبلد أمامها ثلاثة مشروعات مؤجلة منذ سنوات طويلة، وفي كل انتخابات تحيا المشروعات الثلاثة، ويتجدد الأمل في تنفيذ إحداها، وبعد الانتخابات تعود المشروعات إلى بند الأحلام المؤجلة وهي:

١- رصف الطريق الترابي الموصل بين البلد والمركز.

٢- توصيل النور إلى البلد.

٣- بناء مسجد حديث في البلد للصلاة، يليق بمركزها وعدد سكانها.

على أن يتم البدء في أحد هذه المشروعات الثلاث قبل يوم الانتخابات ربما كان ذلك من الأمور الصعبة، ولكن لا يمكن تأجيله، بالنسبة للمشروع الأول تفيد الاتصالات أو المساهمة في المشروع. أو مجرد البدء فيه، حتى لو لم يتم، المشروع الثاني يتطلب الاتصال الفوري بالمسئولين عن

الكهرباء، المشروع الثالث له طريقة واحدة مؤثرة في الناس، وهي التبرع بمبلغ ضخم لبناء المسجد، وإحضار الطوب والأسمنت فورا.

أما البند الثاني وهو المادي ــ ما زال المقاول هو الذي يصب ــ فهو عبارة عن ثمانية آلاف من الجنيهات.

ــ كيف هذا؟ نطق بها المرشح الذي يرى من النافذة موكب السيارات الذي حضر به، وجموع المؤيدين والأتباع الذين ينتظرونه في المندرة. نطق الجملة بطريقة تشي أنه يستكثر المبلغ المطلوب.

ــ لا تنسى أنكم بلد واحد من الدائرة وأن.. لم يكمل المرشّح جملته، أسكتته نوبة سعال عنيفة انطلقت من فم المقاول، الذي تزوج ثالث حريمه في الأسبوع الماضي. وكانت فتاة في عمر أولاده. وفي ليلة الدخلة قرصها في فخذها، ضحكت، فرأى فلجة بين مقدمة أسنانها في مقدمة فمها، فقال لها وهو يحتويها تحته إنها ستكون قدم السعد، تحسس المرشح جيب الجاكتة الداخلي، لمست يده ورقة جديدة، أحس بملمسها من تحت القماش الفاخر

المستورد، الورقة كشف به بيان بالمنافع التي ستعود عليه بعد نجاحه في الانتخابات. قال يكلم نفسه: لكي أنجح مطلوب لي ٥٢ ألف صوت، هذا معناه تدبير ٥٣ ألف جنيه، الأمر صعب. ما قاله المرشح كان خاطرا في نفسه، ذهل عندما اكتشف معرفة المقاول بما دار في خاطره، لوح المقاول بيده في المسافة بينهما، كأنه يقول له: ما لك أنت حر فيه، أما بخصوص المبلغ الذي سأطلبه فسيصرف كالتالي: أخرج المقاول ورقة بيضاء وقلما فاخرا، مربوط بسلسلة ذهبية إلى المكتب. كتب:

ـــستة آلاف صوت. كل صوت سيحصل صاحبه على جنيه مقابل صوته، في آخر انتخابات كان الصوت بخمسة وسبعين قرشًا التي قبلها كان الصوت بخمسين قرشًا، المشكلة هي جنون الأسعار والارتفاع يشد معه قيمة

الصوت. الجزء الباقي لم يكتبه المقاول، أكمله وهو يطوي

الورقة ويمزقها قطعا صغيرة ويرميها في سلة مهملات من البلاستيك مصنوعة على شكل شبكة صياد ماهر قال المقاول: يتبقى من المبلغ ألفان من الجنيهات، ألف منها

لرجاله وأتباعه وسماسرة الأصوات الصغار، وذوي النفوذ وعمل الدعاية في بعض الأماكن، والألف الأخيرة لـه هـو شخصيا.

لم يعطه الفرصة للتفكير، نقر على المكتب بإصبعه، سأله:

ـــ ماذا قررت؟

أفهمه مقاول الأنفار أنه يستحسن الإسراع في رده، بعد نصف ساعة يصل أحد المرشحين المنافسين لـه، وإن المرشح القادر على تلبية مطالب الجماهير سيقرر التعامل معه وحده، المرشح المحترم يفكر في عشيقته، وفي آخر يوم قضاه معها في شاليهات مبنية حديثًا على أطراف مدينة القاهرة وكلفه اليوم مائة جنيه، كل جنيه يضاحك الآخر. ورغم هذا لم يقدر على تنفيذ رهانه معها فيما يخص عدد مرات الجِماع.

قال للمقاول:

ـــ الأمر الله ولك.

مدا يديهما، تصافحا، نامت تجاه تجاويف اللحم فوق بعضها تمتمت شفاههما بالفاتحة:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم. بعد كلمة آمين سحبا أيديهما، وكانت عدوى الدفء قد سرت خلال اليدين، مسح كل منهما بيده على وجهه وقبلها، ثم أمر مقاول الأنفار بفتح الباب ودخول كل الرجال سواء من رجاله هو أو من رجال المرشح المحترم. أصر المقاول على أن يشربوا شربات النجاح من الآن فالنجاح مسألة مضمونة مائة في المائة.

في غمضة عين تتحقق الأحلام

خرج المرشح ابن الأكابر الذي نجح والده وجده، وجد جده في كل الانتخابات عن نفس الدائرة، بعد أو عد مقاول الأنفار بدفع المبلغ المطلوب. ولكن بعد جدولته تبعا لظروفه الصعبة، سيدفعه على ثلاث دفعات: الأولى بعد أسبوع والثانية عندما تشتد المعركة والثالثة ليلة المعركة. عند انتصاف الليل، أي في اللحظة التي يبدأ فيها ميلاد يوم انتخابات، وبخصوص طلبات الشعب الطيب الثلاثة الأخرى، كلها مجابة بإذن الله، ما يمكنه أن يعد بعمله هو إدخال النور فو إ، الطلبان الآخران، يرجو تأجيلهما لعملهما على أسس

سليمة وبشكل عظيم بعد الانتخابات مباشرة، وكما دخل المرشح الناعم الرقيق إلى البلد في زفة خرج أيضا في نفس الزفة.

لم يصدق أحد نفسه عندما دخل النور البلد بعد عشرة أيام فقط من زيارة المرشح المتصل بأولي الأمر منهم. قال رجاله على سبيل الدعاية له:

ــ أول الغيث قطرة.

المهندس الذي حضر لتوصيل النور كانت لديه تعليمات من رؤسائه الكبار في مصر أن يوصله أولاً على منزل المقاول. بعد حضوره إلى البلد، اكتشف أن المقاول له ثلاثة بيوت. لم يكن المقاول موجدا. لكي يعرف منه المهندس المنزل الذي سيوصل إليه النور، قال له الناس إن الولد زنوبة يعرف سر المقاول. بحثوا عنه، وجدوه، طلبوا منه أن يدلهم إلى أي المنازل يتم توصيل النور، قال لهم واللبانة تتحرك في فمه مع الكلمات. إن المقاول له ثلاثة بيوت. واحد قبلي والثاني بحري والثالث وسط البلد. وتعيش فيه زوجته الأخيرة وملحق به مكتب يدير منه المقاول أعماله المختلفة. وهذا البيت هو أحب البيوت إلى قلب المقاول، على الأقل في

الوقت الحاضر، احتار المهندس، وبعد أخذ وعطاء قام بتوصيل النور إلى البيوت الثلاثة.

في أول ليلة يدخل فيها النور، بدت البلد وبها ثلاث بقع من الضوء الجديد، والذي يدخلها لأول مرة، هلل الأطفال وجرى الصبية وحزن أبناء الليل، واعتبرها مقاول الأنفار ورجاله ضربة معلم لأنصار المرشحين الآخرين، وبالنسبة للمقاول فهو أساس ضخم لبناء نفوذه الانتخابية كلها أثناء الليل، لكي يدرك الناس قيمة ومعنى ما قدمه لهم. ويتذكرونه في كل الأوقات.

الأصوات واحدة. فلماذا تختلف النتائج؟

نجح المرشح، وقف المقاول لحظة ظهور النتيجة، وقرأ من ورقة بيده خطبة قصيرة ومعبرة جدا. قال إنه رجل أعمال ولا يعرف الكلمات أو الخطب، وقال إن حصول المرشح المحترم على ستة آلاف صوت وهي كل أصوات البلد سابقة تحدث في مصر لأول مرة. ولم يسبق حدوثها في كل تاريخ البلاد، ثم صاح المقاول، بصوت عال، لدرجة أن عروق رقبته أصبحت في مثل غلظة عامود النور، الذي يقف

المقاول بجواره مرتكئًا عليه، قال المقاول: إن اللقب يتغير الآن أيها السادة، إن حضرة المرشح المحترم، يصبح حضرة النائب الأكثر احتراما من ذي قبل.

ثم حضر المرشح المحترم، الذي أصبح النائب الأكثر احترا له، قيل إنه حضر ليشكر أبناء البلد على حصوله على ستة آلاف صوت، هي كل أصوات البلد بالتمام والكمال، وقيل إنه حضر إلى البلد اليوم لآخر مرة، قال آخرون إنه أتى لكي يصفي حساباته المالية والعاطفية مع المقاول، وإنه سيعطيه مؤخر الأتعاب الذي وعدهم به المقاول. كان النائب متعبا بدا لهم وقد فقد حماسته لكل ما في الحياة من مشروعات وطموحات. مر على الناس في سرعة كأن وراءه من يضربه الكرباج. مد يدا خلت من حرارة الحياة، لكي تهزها الأيدي الخشنة، كانت عيناه ساهمتين وأذناه واحدة من طين والأخرى من عجين، وعندما طلب منه الناس أن يلقي كلمة فيهم اعتذر بأنه متعب، ثم طلبوا أن يحملوه على الأعناق ثم يلفوا به في البلد، وهو يحيي الجماهير، على عادة أهل البلد، قال لهم إن أمنيته الوحيدة أن يذهب إلى مصر وينام ولمدة شهر كامل.

في البلد ظهرت نتائج أخرى للانتخابات على رجال المقاول في شكل ساعات وخواتم ذهبية ونظارات وأحذية وملابس وقطع أرض وبهائم، شبكة كاملة من حالات البيع والشراء والاقتناء وتسجيل العقود وكتابة المبايعات واعتماد وثائق التمليك، وكانت في الطريق إلى البلد ولائم ومراهنات ومشروعات وزيجات وأشكال ثراء مفاجئة. لكن نتيجة الانتخابات والتي ظهرت في بيوت مقاول الأنفار فاقت كل التصورات الأخرى، مر أسبوع على فوز النائب المحترم، خرج المقاول، سافر إلى مصر لحل مشاكل الناس، رد الآخرون، ذهب للحصول على مؤخر الأتعاب والحلاوة. بعض المقربين من المقاول، قالوا وهم يضحكون إنه مسافر إلى مصر يبحث عن محامي كبير، أكبر محامي في البر كله، يرفع قضية، يطعن في انتخاب المرشح الذي أصبح نائبا، ومعه الأدلة ضده، ثم يرشح نفسه في الانتخابات بمجرد كسب القضية. فالنائب له مرتب وسيارة ونفوذ ضخم ولقب أكثر فائدة من خاتم سليمان. وجحا أولى بلحم ثوره، عملية النجاح والسقوط في الانتخابات لعبة قديمة بالنسبة له. في اليوم التالي عاد المقاول من مصر، خيبت عودته ظنون

الكل. عاد يركب سيارة ومعه أربعة أشخاص، ووراءه سيارة نقل محملة عن آخرها. الأشخاص الأربعة الذين كانوا معه ملابسهم تقول إنهم صنايعية، قال الناس إن المقاول أصبح من أصحاب السيارات، ولا بد من الوقوف له فوق المصاطب لحظة مروره. والأشخاص الأربعة حضروا ليكونوا في خدمة السيارة. كهربائي وميكانيكي وخبير في الكاوتشوك ومنجد. حزن الكثيرون على أنفسهم، عندما اكتشفوا أن السيارة لها أربعة يخدمونها بخلاف الخامس الذي سيتولى تنظيفها والسائق سادسهم. في الليل أنزلوا الحمولة من سيارة النقل. لم يتمكن أحد من معرفة محتوياتها، في صباح اليوم التالي، عرف الناس الأمر كله، ها هم العمال الأربعة الذي حضروا مع المقاول، بدأوا في قسمة المعدات التي أحضرها المقاول بالعدل. أحضر من كل صنف ثلاثة. لكل بيت واحد. وبهذا ضاعت على أهالي البلد فرصة متابعة الحروب والمشاجرات بين البيوت الثلاثة. راحوا يشاهدون تركيب المعدات التي لم ترها البلد من قبل. الراديو الكهربائي. التليفزيون، اللمبات الملونة والمستطيلة والمدورة مثل كعك العيد الذي لم يعودوا يرونه. عرفوا هذه الأشياء

بسرعة لأنهم شاهدوها من قبل في البندر القريب.. أما الأجهزة الأخرى فقد تطوع المتعلمون من أبناء البلد. يشرحوا حكاياتها لهم. يقولون اسم الجهاز ووظيفته، الثلاجة هي التي تضع فيها الماء فتأخذه ثلجا مجمدا بعد دقائق، الدفاية لليالي الشتاء الباردة. حجرة من النار والكوالح الصناعية. المروحة للحظة القيالة في السرير مع الزوجة يخلوا جسمها من العظم، السخان لحمام الصباح بعد ليالي الوصال والحب وشواية اللحم. لصنع الكباب والكفتة، تلك الأكلات التي لا تمنح نفسها إلا لأبناء المدن، جهاز التسجيل، تجلس أمامه وتتكلم فيعيد لك ما قلته بمجرد انتهاءك من الحديث. وقد صمم خصيصا في بلاده لتسجيل التأوهات في المضاجعات الجنسية. وسمعوا كلمات جديدة، مثل: النجف، الأباجورات، الإضاءات السحرية.

استغرق العمر ثلاثة أيام. كل بيت يوم واحد. وفي اليوم الرابع. خرجت سيارة المقاول الجديدة لتوصيل الأسطوات إلى مصر. اختلف المحرومون في تحديد سعر السيارة، تاهوا وتخبطوا بين الأرقام. لخص إمام المسجد المناقشة بقوله:

ـــ السعر لا يزيد على أربعة آلاف من الجنيهات.

ولن يقل على الألفين فسبحان موزع الأرزاق.

تحول الحديث إلى الكهرباء. اكتفى البعض بالحديث عنها. تجرأ الآخرون ولفوا وداروا حول بيوت المقاول. التي تسبح في بحيرات الضوء ليلاً. ذهب أحد المتطلعين إلى مقاول الأنفار. سأله عن تكلفة إدخال النور إلى بيته. حتى يفعل مثله. طلب منه المقاول الهدوء والصبر. لأن المسألة مكلفة جدا. وليس في طاقة أحد في البلد كلها أن يدخل النور مثله. فتر الاهتمام بالمقاول والانتخابات وأمواله وحكايات الكهرباء إلى أن تسرب سر كهربائي خطير إلى الناس. جعل اهتمامهم يشتعل من جديد. عرف المتسكعون أن منزل العروس الصغيرة يتميز بأمر هام. لا يوجد في المنزلين الآخرين، وهو جرس رنان يستخدم بدلاً من خبط الباب باليد. وأن هذا الجرس له أكثر من فرع. مثل شجرة الجميز والعجوز. يبدأ من المكتب الذي يجلس عليه المقاول. له زر على شكل بلحة مدلى بجوار المكتب، يضغط عليه المقاول سرا. وهذا الجرس القحط السري يوصل إلى حجرة نوم زوجته الصغيرة. ويقولون إنه يصل إلى رأس السرير

مباشرة، وهو يستخدمه كنوع من الإشارات المتفق عليها، بين المقاول وزوجته خاصة عندما يريد أن يختلس بعض الوقت ليقضيه مع زوجته التي في عمر أولاده. في الأيام المخصصة لزوجتيه الأخريين، دون أن يدري أحد بذلك، الجرس الآخر يبدأ من المندرة وزره على شكل تفاحة وهي مدلاة من سلك في الحائط بجوار المكتب الذي يجلس إليه المقاول. وهذا الجرس يتصل بالمطبخ، وهناك شفرة خاصة بين المقاول والطباخ. الضربات تحدد نوع الطلب. الرنة الصغيرة تعني أن المطلوب شايا. أطول منها قليلاً قهوة، ثلاث ضربات متتالية معناها إعداد طعام، إذا تحولت الرنات إلى صوت يشبه الكركرة فالمطلوب شيشة أو جوزة. يؤكد من يحكي، أن الضيوف الذين زاروا المقاول أخيرا أصابتهم الدهشة، عندما سألهم عما يشربون، ثم لم يصفق بيديه كعادته حتى يحضر الولد زنوبة. ويطلب لهم المشروبات. ساعتها تصوروا أنه نسى أو أهمل طلباتهم ولكنهم فوجئوا بعد قليل بحضور الولد زنوبة من الداخل ومعه طلباتهم، نفس ما طلبوه بالتحديد. فتعجبوا من حال الدنيا وما فيها. وخرجوا ليؤكدوا للناس أن المقاول سره باتع وأنه واصل. وأنه بلغ

الولد زنوبة بما يريده عبر الجدران والأسوار والمسافات. ضحك الآخرون وقالوا: إن روح المقاول حلت في روح الولد زنوبة وأن بينهما تفاهما صامتاً، يتم دونما كلمات.

الجرس الثالث والأخير يوجد على الباب الخارجي.

لبيت زوجته التي يقولون إنها تناديه بلقب يا بابا، فيثور، وهو مركب على يمين الباب في ارتفاع قامة رجل ليس طويلاً ولا قصيرا، فالجرس له لونان أبيض حليبي بالنهار وأخضر برسيمي في الليل مثل عيون القطط الشبعانة والتي تخرج من باب المقاول ليلاً.

هذا الجرس يوصل إلى وسط الدار مكتب المقاول

وحجرة الولد زنوبة في وقت واحد. جميع الذين بلا عمل، قرروا التأكد من صدق حكايات الجرس، صعد ولد منهم فوق المنزل المقابل. حتى شاهد بنفسه واحدا من الأعيان يرفع يده. ويضغط على البقعة الناعمة. ثم سمع صوت الرنين وعاد ليقول لرفاقه. إن الصوت أسرع من ضربات جرس المدرسة التي لم يدخلها واحد منهم قط.

الصبر.. الصبر.. الصبر

اكتمل الأسبوع الثاني بعد فوز النائب الأكثر احتراما. ولم يتقاض واحد من الناس مؤخر أثمان الأصوات، كما سماه المقاول. كل منهم حصل على أربعين قرشًا مقابل صوته وباقي له ستون قرشًا قيل له إنه سيحصل عليها فور ظهور النتيجة، إنهم يذكرون كلمات المقاول. قال لهم: إن من سيحضر منهم ليبارك بيده اليمنى سيأخذ الستين قرشًا باليد اليسرى. بل طلب منهم أن يحتفظوا بالأربعين قرشًا كما هي. لكي يسلمونها ويأخذ كل منهم الجنيه صحيحا، بسبب أزمة الفكرة في مصر أيام الانتخابات والأعياد عادة. ذهب إليه جماعة منهم يطالبون بباقي الأموال. لم يخرج لهم المقاول. قال رجاله إنه متعب ومجهد. وعلى أبواب مرض قد يطول بسبب المجهود الذي بذله في المعركة الانتخابية. أرسل لهم الولد زنوبة لكي يتكلم معهم. طلبوا منه أن يخرج اللبانة من فمه أولاً. رفض بحجة أنها تساعده على حسن الكلام. كادت أن تحدث مشكلة بسبب قطعة اللبانة، أخيرا تكلم. قال إن المقاول لن يأكل عليهم مليما واحدا. وهو زعلان منهم بسبب سرعة الطلب. لأنه يفكر في مصلحتهم أكثر منهم. لهذا فهو

يرى أنه أهم من أخذ مؤخر الأتعاب أن يكون ذلك المؤخر على شكل فرص عمل وخدمات للبلد. وهذا أقوى من المبلغ البسيط الذي سيحصل عليه كل منهم على حدة. وافق النائب المحترم على الطلب وقال إنه يرجو منحه فرصة ستة أشهر حتى يفكر في كيفية تحقيق هذا الطلب. والمقاول يرجو أهل بلده الكرام. أن ينتظروا وأن يصبروا. أليست أول صفات الفلاح المصري العظيم. وأهمها على مر التاريخ هي الصبر أولاً. والصبر ثانيا والصبر ثالثاً وأخيرا. وما هي إلا أيام قليلة. وخرج المقاول. ذهب إلى البندر. طلبوا له الشفاء بعد أن قيل لهم إنه ذاهب للعلاج. ولكنهم عرفوا أنه ذاهب لشراء بعض المعدات لافتتاح مشروعات يستثمر بها فائض الأموال. التي عادت إليه من الانتخابات الأخيرة. وأن البلد ستتحول إلى جنة الله على الأرض. قالوا إنه سيحضر منشارا كهربائيا ويبني فرناً إفرنجيا يصنع الخبز الأبيض وسيفتح محلاً لعصير القصب، ومقهى به تليفزيون ملون يكون الجلوس فيه والفرجة عليه مقابل خمسة قروش علاوة على ثمن المشروب. وتهامس البعض أنه سيبني عمارة ضخمة من عشرة طوابق لسكنى موظفي الحكومة الذين يعملون في

البلد. وبذلك يكون قد وضع الحكومة كلها في جيبه. وسيخصص الدور الأرضي من العمارة لكي يكون سينما ضخمة، وكان للجرس مكان في الحكايات الكثيرة. قالو إن المقاول سيربط بيوته الثلاثة بجرس واحد. حيث يستطيع وهو في السرير أن يخاطب حرسه ورجاله والنائب المحترم ونسائه تحسبا للغد. النائب المحترم وحده هو الذي غاب عن الحكايات لأنه لم يعد له وجود في حياتهم من يوم فوزه في الانتخابات.

الجرس يدلي بصوته

لم يعرف المقاول متى بدأت مضايقات الجرس. ولكنه يذكر فقط أنه كان يعيش بسعادة غامرة كلما شاهد جمعا من الناس يقفون لكي يشاهدوا زر الجرس، كانت الوقفة تتم في وقت الغروب، في تلك اللحظة التي تتساقط فيها قطرات الظلام الرمادي فيزداد لمعان الزر. كلما أصبح الظلام مؤكدا. إنهم يظلون حوله حتى يصبح الظلام عباءة تلف بداخلها وجودهم، في هذا الوقت بالذات يكون للزر

وجوده. نقطة من الضوء، ينعكس نورها الأخضر على عيونهم التي بلا رموش.

كان المقاول يشاهد المنظر بسعادة. يذكر أنه بعد السعادة حدثت بعض المضايقات، بدأت بصبي صغير، يقترب من الباب يضغط على الزر ثم يولي هاربا، ضغطة صغيرة لا تصل إلى أقل من الثانية، اعتبرها المقاول معاكسات أولاد. بعد هذا لاحظ المقاول أن معاكسات الجرس طالت. ولا تحدث إلا وقت تناول طعامه أو وهو نائم، وكانت النتيجة معروفة له، فهي إما توقف اللقمة في زوره أو تحرمه لذة مواصلة الجماع مع زوجته اللينة، كلف أحد أعوانه بملاحظة الجرس أوقفه بجوار زر الجرس، ولكنه فوجئ في اليوم التالي بالجرس يضرب مرتين متتاليتين.

خرج مسرعا، عرف أن الذي ضرب الجرس لم يكن بمفرده. كانوا ثلاثة. اثنان، شاغلا الرجل الواقف لحراسة الزر، والثالث ضغط عليه. وفروا هاربين، توقف المقاول أمام هذه الحادثة، صفّر بفمه، وأسند رأسه بين يديه، قال إن المسألة لم تعد معاكسات والإعجاب بالجرس، إن التدبير واضح هذه المرة، وضربات الجرس نوع من الإنذار له.

إنذار يستخدم الكهرباء، أحدث ما دخل البلد ولا بد من اليقظة ومحاولة معرفة من الذين يقفون وراءه الحكاية أكبر من هذا. وراءها ما وراءها من الأمور الخطيرة. يومها قرر أن يقيم في بيت أحدث زوجاته الموجودة في وسط، البلد بصفة نهائية، حيث توجد خزينته ومكتبه ومصالحه وأمواله ضاربا باعتراضات زوجتيه الأخيرتين عرض الحائط.

أشار عليه أحد أعوانه بإلغاء الجرس وفك زره. رفض الفكرة من أساسها، هاج فيهم، قال إن مجرد طرح الفكرة فأل سيء وأنه قادر على حماية آلاف الجرسات وليس جرسا واحدا، وأن صديقه النائب يستطيع أن يرسل له كتيبة كاملة.

شاعت قصة الجرس في البلد. وتفرغت مجموعة من الشبان لحكاية الحرس. وأقسم المقاول أن المقاولين الصغار والذين وقفوا مع المرشحين المنافسين لمرشحه المحترم، هم الذين يقفون وراء معاكسات الجرس، إنها مؤامرة الهدف منها إفساد استخدامات الكهرباء في بيته. للقضاء على آفاق الكهرباء في البلد كلها. شدد الحراسة. وكلف اثنين بالقيام بحراسة زر الجرس.

هدأ الأمر في اليوم الأول. قضى نهاره بدون رنين وتصور أنه استراح ولكن في الليلة التالية وفي ساعة الفجر الرمادية الموحشة، الساعة التي يصل السكون فيها إلى منتهاه، رن الجرس رنة مفاجئة، مزقت السكون، قام فزعا. خرج وجد الحارسين يجريان، الذي أدهشه أنهما كان يجريان وراء مجموعة من نساء البلد. عاد الحارسان إليه وأكدا له أن وجوه النساء كانت غريبة بالنسبة لهما. وقال أحدهما إن النساء من الجن والعفاريت. المقاول رجل واقعي، لا يسمح للأوهام أن تتسلل إلى قلبه، لذلك أصر على أن النساء من البلد وأكد أن الفجر له خيالات غريبة تفقد الإنسان القدرة على الرؤية.

في الصباح مر في حواري البلد. عاكسه الشبان بأن ضغطوا بأصابعهم على زر جرس وهمي في الفراغ. فجرى وراءهم وسماه الأولاد المقاول الزر، ولكن المقاول طمأن نفسه بمجرد وصول المعدات وافتتاح المشروعات سيعمل فيها نصف أهالي البلد. وسيصبح من جديد الرجل الذي يمنح ويمنع حتى الحياة نفسها.

بيان رقم واحد

إلى أن كانت ليلة.

لحظة انتصاف الليل، كان المقاول نائمًا وعيناه مفتوحتين، وبجواره راديو اشتراه من أموال الانتخابات، الساعة تدق معلنة انتصاف الليل. ولأن البيت كان غارقًا في صمت غريب كانت الدقات تصله واضحة لها رنين ورجع الصدى يملأ كل غرف البيت الخالية. انتهت الدقات، امتص صمت البيت آخر صدى للدقة الثانية عشرة. والتي تأتي بعد إحدى عشر دقة رتيبة ومملة. مرت برهة. وانطلق الجرس يضرب. لم يهتم بالأمر، رجاله ساهرون وسيتولون الأمر سواء كان الضار رجلاً أم امرأة أو حتى عفريتًا، ولكن الجرس استمر في الرنين. لم يتوقف. خيل إليه أن صوت الجرس أصبح أكثر ارتفاعا. صحت زوجته فزعة، تساءلت، لم يرد عليها. وضعت إصبعيها في أذنيها. حاصرت الصوت، لفت رأسها في ملاءة السرير. استمر الحصار، قام المقاول بهدوء. حاول أن يحطم الجرس. ازداد الصوت ارتفاعا، أحضر المقاول قطعة من الخشب، انهال على الجرس بالضرب، سقط الجرس على الأرض مفككًا إلى قطع

صغيرة. ومن كل قطعة كان يهجم عليه صوت مزعج، صرخت زوجته الصغيرة، ونبحت الكلاب، وهاجت البهائم في الزريبة. خرج المقاول بملابس البيت وهو ثائر وغاضب. المنظر الذي شاهده لن ينساه إلا يوم الموقف العظيم. كان أهالي البلد، بالتحديد الستة آلاف أصحاب الأصوات يقفون في طابور طويل أمام بيته. شاهد الجلاليب. والطواقي تطل عليه من عتمة الليل. كانت ثمة حركة منظمة، أول الواقفين في الطابور يضع إصبعه على زر الجرس ولا يرفعها إلا بعد أن يضع الذي وراءه إصبعه مكانه. ويذهب إلى آخر الطابور الذي لا يعلم أحد إلى أين يمتد، وقف المقاول. لم يتكلم. لم يتقدم خطوة واحدة. لم يفعل أي شيء، وقف يشاهد ما يحدث في صمت مشحون بالانفعالات. ظل واقفًا إلى أن تعبت قدماه. ولم يدخل البيت، أحضر زوجته الحسناء وأمر بأن يفتح المكتب، جلسا فيه حتى الصباح، وأصبحت متعة أهل البلد متعتين. ضرب الجرس ومشاهدة زوجة المقاول الصغيرة والتي لم تنكشف على رجل من قبل في البلد كلها.

أتى الصباح والطابور ما يزال في حركته البطيئـة. أرسل المقاول أحد أعوانه إلى البندر. لكي يحضر كهربائي. يفك له الجرس وكل التوصيلات الكهربائية في بيوته الثلاثة، حضر الكهربائي. كان الطابور ما يزال مستمرا في دورانـه النهائي. لم يتمكن الكهربائي من فك الزر ولا حتى الاقتراب من البيت. لكي يفصل التيار. اتجه أحد أعوان المقاول إليـه يسأله هل يفصل التيار عن البلد كلها.

فلم يرد عليه.

رحلة الأسطى أحمد وأخته بهية

ــ هل تبدأ الحياة بعد الخامسة والستين؟

سؤال طرحه الأسطى أحمد، على نفسه، في ذلك الصباح الذي لم يكن جميلاً والذي بلغ فيه سن الخامسة والستين، وتقرر أن يحال للمعاش، لم تكن لديه إجابة، وسبب طرح السؤال، أن الأسطى أحمد قرر أن يقوم بأغرب فعل يقوم به الإنسان في مثل هذا اليوم، قرر أن يتزوج. وأن يتم الزواج في نفس هذا اليوم بالذات، وعندما وصل إلى قرار الزواج، قال لنفسه في خوف: ربما كانت صحوة الموت. فالإنسان تصيبه حالة من اليقظة الغريبة قبل النهاية بلحظات قصيرة، قال لنفسه إنه ربما كان حساب السنين معه بالمقلوب. النهاية مكان البداية والبداية بدلاً من النهاية، هكذا فكر. بالأمس فقط وصل خطاب صغير إلى المحطة التي عمل في دائرتها من إدارة شئون العاملين. الخطاب قصير وحاسم ومدبب. أسطر معدودة تقول إنه وصل إلى السن القانوني ابتداء من ذلك الصباح، سويت حالته وحصل على خطاب جديد موجه لإدارة المعاشات، يخطرها بالبدء في

صرف معاشه، وهكذا وجد نفسه وحيدا، ومعه الخطاب وأمامه عدد لا نهاية له من الأيام والليالي. لا يعرف كيف يقضيه حيث الطريق إلى القبر يبدو بدون نقطة بدء، وليست له محطة وصول، وأتى الصباح الذي لن يخرج الأسطى أحمد عمله، لأنه لم يعد لديه عمل يذهب إليه. بدأ النهار، وفقد الصباح طقوسه الجميلة فضلاً عن أن هناك مشكلة لم تحل، مشكلة البيت الذي يعيش فيه. الحديث عن البيت والمعاش والمشاكل يتطلب البدء بالحديث عن عمله والأسطى أحمد كان من عمال الدريسة، لا أحد يعرف أصل كلمة الدريسة هذه. ولكنه يعمل في إصلاح قضبان قطارات السكة الحديد وصيانتها والتأكد من تثبيت الفلنكات الخشبية بالأرض وثبات قطبي السكة الحديد بالفلنكات. المسافة التي يعمل فيها تصل لحوالي أربعين كيلو مترا على طريق السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية. كان عامل دريسة، وهذا معناه أنه كان في قاع العمل، فوقه رؤساء لا يحصيهم العد الملاحظ، المراقب الهندسي، الباشمهندس، المدير والمدير العام. صف طويل من الأفندية لا عمل لهم سوى رئاسة الأسطى أحمد، وهو الوحيد فيهم الذي يتعامل مع قضبان السكة الحديد. يمر

على القضبان والفلنكات في المسافة التي يعمل بها. ويبلغ الرؤساء بما يجده وهم ينصرفون. لم يكن يعمل بمفرده، معه أربعة عمال، كان المفروض أن يكون هو الأسطى عليهم. ظروف الأيام المقلوبة جعلت غيره رئيسا عليه أما كلمة الأسطى التي تسبق اسمه. فسببها الوحيد، تقدمه في السن وأقدميته في العمل. طول عمره وهو وحيد. لا يعرف الآن كيف مضى هذا العمر، ولا كيف تسربت لحظاته وأيامه ببطء قاتل. أصله في الأساس من إحدى القرى القريبة. وكانت له قطعة صغيرة من الأرض. من يوم حصوله على العمل في المصلحة ترك البلد. قال إخوته إن من يترك داره ينهد شرفه ويقل مقداره. بدأ النزاع على قطعة الأرض التي تخصه. ولكنه منحها لأخته بهية أصغر إخوته. والأقرب إلى ابنته منها إلى أخته. وعندما بدأ الحديث عن المعاش: حاول بكل الوسائل أن يبقى في العمل. كتب الالتماسات وأرسل الشكاوى. وقال إنه قادر على العمل. وليس في حياته ما يعمله، المعاش يعني بالنسبة له الموت. هكذا تصور. وحاول أن يقنع رؤساءه. الشكاوى التي أرسلها عادت إليه. المعنى واحد في كل الردود وإن اختلفت الكلمات من رد لآخر.

العمل بعد من الخامسة والستين بالنسبة لعمال الدريسة ممنوع. لا أحد يملك الحق في إصدار مثل هذا القرار. وإن صدر فلابد من القول في مذكرات وأوراق رسمية كثيرة إنه لا يوجد شخص آخر يصلح للقيام بعمله. أحنى رأسه. ولم يجرؤ على إثارة حكاية البيت الذي يعيش فيه وهو ملك للمصلحة، بيت مبني من الدبش الأبيض، غرفة واحدة منعزلة عن مساكن باقي العاملين في السكة الحديد لأنه أعزب، بالقرب من بابه يمتد شريط السكة الحديد، خلفه طلمبة ترفع المياه إلى فنطاس فوق البيت كان يديرها بنفسه وبجوار الطلمبة عنباية زرعها بنفسه في الزمان القديم، وظللت البيت، وفي المسافة التي تفصل بين البيت والسور الذي يحدد مساحة الأرض التابعة للسكة الحديد، توجد تكعيبة من الخشب تنام فوقها شجرة العنب. ومن وراء السور ترعة وخلف الترعة طريق السيارات، عالم متحرك من خلفه ومن أمامه وهو وحده الثابت في الأرض، كأنه دق إليها بالمسامير، لم يكن يعرف هل ستأخذ الهيئة البيت منه؟ هذا مفروض. فالمساكن تعطى لمن بالخدمة فقط، ويوجد طابور طويل من العاملين الذين لم يحصلوا على سكن وينتظرون

دورهم للحصول على سكن، وعندما اقترب موعد إحالته للمعاش حدثت خلافات حول من يستحق البيت. وتقرر عمل أولويات وإجراء قرعة علنية معًا للمشاكل، ورغم هذه الإجراءات لم يكن لدى الأسطى أحمد أي إحساس بأنه سيترك البيت في يوم ما، لقد خدم المصلحة، كل سنوات عمره ولا يمكن أخذ البيت منه أبدا، مهما حصل، الهم الثاني الذي كان يعذبه في ذلك الصباح هو الكرنيه الذي كان يركب به قطارات السكة الحديد مجانًا، إن سفرياته قليلة وحركته نادرة وارتباطه بالمكان مسألة قديمة، وربما لم يستخدم هذا الأبونيه من قبل كثيرا، ولكنه بمجرد أن شعر أنه سيؤخذ منه، حتى أدركه قلق وأخذه من جيبه حيث وضعه في مكان بعيد. تحت قطعة دبش في الجدار الخلفي للبيت، ولم يدرك ساعتها ــ لأنه لا يعرف القراءة والكتابة ــ أن مدة الأبونيه تنتهي مع اليوم الأخير في الخدمة، وهكذا استراح في صباحه بقراره ألا يترك البيت أبدا وإخفاء الأبونيه في مكان لا يعرفه أحد. ثم تفرغ لأهم ما في ذهنه. حكاية الزواج.

وحكاية الزواج تعود للأمس، لليوم الأخير له في الوظيفة، ففي هذا اليوم رأي الأسطى أحمد الأشياء بعين

جديدة، واستقرت المرئيات في قاع العين، وتسللت إلى القلب المتعب والعقل الذي أصابه صدأ الأيام. اكتشف أنه كان هناك الكثير من الأشياء لم يكن يراها جيدا، بسبب الألفة اليومية. وقد وجد نفسه ينفض تراب الألفة عما يراه، وهكذا قرر أن يمر بالمنطقة التي قضى العمر كله وهو يعمل بها حتى لو استغرق ذلك اليوم كله، في آخر المنطقة التي يعمل فيها من الناحية القبلية يوجد بيت مهجور، لم يكتشف وجوده إلا في هذا اليوم، عندما اقترب من البيت الغريب المهجور، شعر بعطش جارف، الزمزمية التي رافقته في رحلة العمر لم تكن معه، اقترب أكثر من البيت، وجد حوله علامات ودلائل حياة فيه دق الباب، صفق بيديه، صاح قائلاً.

ـــيا أهل الله.

كانت دهشته بالغة عندما فتح الباب وأطلت منه فتاة وجهها كالبدر المنور، تساءل لحظة رؤيته لها إن كانت ابنته أو حفيدته وهو لا يدري، نظر إليها وسكت، شعر بجفاف في حلقه، وبحبات عرق تنبت في أكثر من مكان بجسمه، وأسرعت دقات القلب وغامت الرؤيا أمامه، فلم يتكلم تعطلت بداخله الكلمات وماتت على الشفتين همسات نسجتها اللحظة.

قالت الفتاة بصوت كخرير المياه:

ـــنعم يا والدي.

بدا له الصوت كوسادة ناعمة يستريح القلب عليها، لم يستطع الرد، تاهت منه الكلمات ـــمدت الفتاة يدها، أمسكت يده، أحس بضراوة اليد ونعومة الجلد، سحبته من يده ودخلت، كانت بمفردها في البيت، أحضرت الماء والطعام والشاي، هبت على البيت من الناحية البحرية نسمة هواء فيها رائحة الأرض والماء والزرع الأخضر فأحس أن روحه تستيقظ بداخله، نظر إلى الفتاة نخرت الأسئلة رأسه ودقت عظامه، من هذه الفتاة؟ وأين أهلها؟ ولماذا تدخل هنا؟ قال لنفسه: ربما كانت من بنات الجان، وتذكر حكايات الغواية والحب وعلاقات الإنسان بالجن التي توصله إلى الجنون بعد هذا همس لنفسه:

ربما كان الجنون لذيذاً وكان مخرجا من حالته استجمع قواه، وقرر أن يسألها عن ظروفها، طلبت منه ألا يفسد جمال اللحظة بأسئلة لا مبرر لها، قالت له: إنه ما دام سيحضر إليها كثيرا يمكنهما الكلام في كل أمور العالم، تساءل في فرح طفولي: وهل يمكنك الحضور كثيرا، قالت

مؤكدة: في كل لحظة يمكنه الحضور إلى هنا. في الفراغ الذي يحيط بالبيت لم يكن يسمع سوى تردد أنفاسه ودقات قلبه المتعب. لقمة هنية في أطباق نظيفة، وبيت فيه رائحة أنثى هذا ما كان يفتقده كل أيام العمر التي مضت بدون معنى، خالية حتى من العواطف، إن الأسطى أحمد يكتشف في جلسته هذه أن العمر كله لا يساوي هذه اللحظة العابرة أكل حتى وقف على أظافره وشرب مياها باردة حتى شعر بطراوة سريانها في كل جسمه، وتاه من خدر اللحظة، وهبت نسمة طرية فأسكرت حواسه، وفي جلسة ما بعد الطعام أُغفى وتمنى أحلامه ألا يفارق هذا المكان أبدا صحا من نومه رأسه فوق فخذ الفتاة ويدها تعبث بشعره وفي عينيها تترقرق دمعة تأبى النزول فتمنح العين بريقًا لامعا نادرا لم يره من قبل، ومن أعماقه الجرداء سحت الدموع الدافئة، كوب الشاي الذي أعدته له كان يطل منه عود نعناع أخضر، قطعته في هذه اللحظة فقط من حقل صغير وراء البيت، لم يذق أشهى منه في حياته، قال لنفسه: هذا البيت بجوار السكة الحديد صاحبه إذن واحد من العاملين في المصلحة وتلك الفتاة هي وحيدته والرجل في سن المعاش مثله، ربما كان موظفًا

كبيرا، ما أسعده بمثل هذه الفتاة، آه لو كان له فتاة مثلها؟ إذن لتغير العمر كله قام، سوى ملابسه، استأذنها في الانصراف وهو يتمنى من كل قلبه أن يبقى بجوارها حتى آخر عمره، نظرت الفتاة في ساعة معها، ولم تلح عليه في البقاء، كل ما فعلته أنها اقتربت منه، وشبت على أطراف أصابعها، حتى أصبح وجهها في موازاة وجهه تماما، وطبعت على شفتيه قبلة لاهثة وسريعة وخجولة، وضعت شفتيها مضمومتين فوق شفتيه، وضغطت عليهما بكل قوتها لحظة التصاقها به شعر بدقات قلبها واضحة، تركها وخرج سار، واستدار ونظر إلى البيت، رأى وجهها يطل من بين حديد نافذة صغيرة ومن بين قضبان الحديد مدت يدها بمنديل أزرق مغموس في دموع العين، حاول المشي ولكنه وجد نفسه مشدودا للمنطقة المحيطة بالبيت، لف ودار، سأل الناس عن البيت، كل الذين سألهم كانوا يردون على الفور:

ــ تقصد بيت الحريم.

وكان يتساءل:

ــ أي حريم؟

كانوا يتكلمون والابتسامة تعلو وجههم، وفي البيت أرملة وثلاث فتيات بناتها، رجل الأسرة الذي توفي منذ سنوات كان يعمل مفتشًا للري وهذا البيت مملوك لمديرية الري، وهم يعيشون فيه من بعده، لأنهم لا مكان لهم في الدنيا كلها، المعاش صغير، والأرملة ليست متقدمة في العمر، وهي تذهب مع إحدى الفتيات في بعض الأحيان للبندر القريب، ثم تعودان وقت المساء، بعض الرجال الغرباء يحضرون إلى البيت أحيانًا، ويخرجون بعد وقت طويل، لا يحضر إلى بيت الحريم سوى الشباب الخضر، أو الرجال الذين تنام فوق قلوبهم أكياس غليظة مليئة بالأموال فلماذا يسأل هو..؟

عاد الأسطى أحمد إلى حجرته، وفي الليل زحفت صورة الفتاة على جدران غرفته، وأضاءت ابتسامتها عتمة غرفته، أتاه طيفها واستيقظت رجولته كلها دفعة واحدة، وعجب من أمره، عندما كان معها لم يفكر فيها إلا كابنة له أو حفيدة، ولكنه في أحلام الليل اشتهاها واكتشف في الحلم البطن الذي لم يعرف الحمل بعد والردفين المتماسكين والصدر الشامخ، قال لنفسه: كيف لم ير كل هذا؟ أفاق من

أحلام الليل وجلس يفكر ها هو يعثر مؤخرا عن ما يكمل له حياته تأخر اللقاء كل هذا العمر الطويل ولكنهما خلقا لبعضهما الآخر. مشكلتها هي وأمها وشقيقتها أنه لا يوجد رجل في حياتهن، وحياته لا تطاق وتبدو خالية من المعنى لعدم تردد أنفاس امرأة في بيته، المسافة بينهما ليست بعيدة وانتقاله إليهن يعوضه كل ما فقده بحكاية المعاش، سيزرع الأرض الموجودة خلف البيت، وسيستأجر أرضا أخرى، سيكون ظلاً للحريم المسكينات اللاتي لا ظل لهن، قام من مكانه النهار ما يزال بعيدا والليل يخر عن آخره ومع ذلك فتح صندوق ملابسه القديم، انبعث منه صوت عال لأنه لم يفتح منذ سنوات مضت، نفض تراب السنين من فوق الملابس، أخرج جلبابا من الصوف، لم يضعه على جسمه منذ سنوات الشباب الأولى، قرار ألا يرتدي منذ الصباح البدلة الكاكي، بدلة مصلحة السكة الحديد، أخرج صديريا شاهيا أبيض والجزمة أم أستك ذات اللونين، البني الغامق والأبيض، حذاء من الزمان القديم، لا وجود له الآن، والشراب الصوف والطاقية التي غزلها بيديه أيام كان شابا، من صوف خروف كانوا يربونه ليذبح للفقراء وأولياء الله

الصالحين في مولد النبي. أخرج المحفظة الجلدية والسلسلة البيضاء الفضية التي تربط المحفظة بالصديري، شعر بدفق الشباب في دمه وهو يخرج أشياءه كلها وراح ينتظر الصباح الذي بدا له بعيدا.

في الصباح، ذهب إلى أخته بهية، وبدلاً من أن يحدثها عن المعاش والفراغ والأيام القادمة، قال لها ببساطة، أنه سيتزوج، ومطلوب منها أن تستعد للذهاب معه إلى بيت العروس، قالت بهية لنفسها: إن خيالات الفراغ، أصابت أخاها بمس، سألته عن العروس: اسمها وأهلها؟ ورسمها عمرها، والدها؟ هل هي مطلقة أم أرملة وهل معها أولاد من زوجها السابق أفهمته إن كانت مطلقة لابد من السؤال عنها، ربما كانت هي السبب في الطلاق، وقد تكون من النوع الذي لا يعمر في البيوت فتخلق له مشكلة في وقت هو غير مستعد فيه للدخول في المشاكل، شعرت بحزن عندما قال لها إنه لا يعرف حتى اسمها كل ما يعرفه عنها أنها فتاة بكر. لم تتعد السابعة عشرة من عمرها، يتيمة الأب، تعيش مع أمها وأختيها في منزل على شمال السكة وإنه لم يفاتح أحدا من أهلها، وإن كان يشعر أنهم يحتاجونه أضعاف احتياجه لهم،

مشكلتهن الأساسية وجود رجل في بيت تعيش فيه أرملة مكسورة الجناح وثلاث بنات الرجل هو السند الوحيد لهن، مسألة رفضه غير واردة أبدا، وهذا ما تحدثه به نفسه بعد زيارة الأمس.

ـــ عليه العوض ومنه العوض، جن أحمد.

قالت بهية لنفسها، وإن كانت قد تظاهرت بالصمت التام أمامه. تصميمه جعلها تخشى التفكير في رفض طلبه، قالت لنفسها: لتذهب حتى آخر المطاق. وعندما يكتشف بنفسه الأوهام التي يجر وراءها فإن هذا أفضل من النقاش والجدل، تركها على أن يعود إليها وقت العصاري، حيث إنه أنسب الأوقات لأهل العروس. كان كل ما معه.. ثمانية جنيهات وستون قرشًا. منها مبلغ جمعه له زملاؤه في العمل قدره خمسة جنيهات. وثلاثة جنيهات وستون قرشًا. كانت هي كل ما يملك. كان زملاؤه يفكرون في شراء هدية له. الفكرة نبعت من المشرف وهو أفندي من البنادر، وقد تمكن من جمع الجنيهات الخمسة بصعوبة، فالأيام ضنينة والزمن بخيل وصعوبة الحصول على القرش تجعل إنفاقه مشكلة. علم الأسطى أحمد بحكاية الهدية. فقال للمشرف عندما سأله

عن نوع الهدية التي يفضلها إن أحسن الحلول هو أخذ المبلغ ناشفا لأنه في أمس الاحتياج إليه. سيوصله المبلغ إلى بر الأمان، من الآن وحتى اللحظة التي سيصرف فيها المعاش. لا يعرف كيف يصرف أموره. والكل يعلم كم من الليالي والأيام ستمر قبل صرف المعاش. امتعض المشرف من فكرة الزواج، المبلغ كان هو المخرج الوحيد لولاه ما نفذ الأسطى أحمد المشروع. كان سينتظر على الأقل لحين صرف معاشه، وهو يعرف أن يوم الحكومة بسنة. ذهب إلى البندر. اشترى علبة سجائر كبيرة من النوع المستورد. مع أنه لم يدخن في حياته، اشترى دستتين من الجاتوه وزجاجة كولونيا لها رائحة نفاذة، ومنديل يد حريمي ومنديل رجالي، فتح زجاجة الكولونيا ونثر منها على المنديلين حتى يذكراه بمناديل الأفراح في بلدته البعيدة. يوم الصباحية حيث كان يخرج المنديل ويشمه من وقت لآخر، ولكي يدخل طعم الفرحة إلى بيت أخته بهية، اشترى بطيخة كبيرة، ليكسرها في منزل أخته قبل الذهاب إلى بيت العروس أو بعد العودة منه وتتحول وليمة أكلها إلى مناسبة سعيدة.

كان قطار العصاري خاليا. ركب الأسطى أحمد وأخته بهية التي كانت حاملاً في منتصف أشهر الحمل تماما، جلس على كرسي من الخشب المتآكل وجلست بهية قبالته، أتت جلستيهما بجوار نافذة بحرية، تحرك القطار ببطء وتحركت المرئيات مكونة دائرة مركزها أرضية القطار التي كانت مغطاة بفضلات اليوم كله. والظلال طويلة، بلا نهايات محددة والأفق البعيد يبدو مفرودا على آخره. انتظمت سرعة القطار أخيرا، وعلى هدهدة صوت عجلاته استراحت أعصاب الأسطى أحمد لأول مرة في هذا اليوم وأخذت التقلصات التي كان يعاني منها. تهدأ ببطء. ها هي لحظات الهدوء المفقود تتسلل إلى نفسه.

وصلا إلى البيت بصعوبة. مشيا مسافة طويلة من المحطة وحتى البيت، قالت بهية والتي كانت متعبة من المشي. إن البيت فعلاً على شمال السما، تساءلت هل يمكن أن يعيش هنا أحد من خلق الله؟ وهل يتصور أحد أن الذين يعيشون هنا، أرملة وبناتها الثلاثة؟ عموما لقد اقتربت اللحظة التي ستتأكد فيها من هذا الكلام كله.

طرق الباب كثيرا ومرت فترة طويلة قبل أن تفتح شراعة صغيرة فوق الباب. وأطلت منها وجوه فزعة. تنظر بدهشة بالغة ثم تختفي. إلى أن رأى وجه الفتاة الصغيرة يطل أخيرا، بصعوبة بالغة عرفته، وحاول هو أن يذكر بنفسه بالإشارة، لأن نفسه كان مقطوعا من المشوار الطويل والخبط على الباب الضخم. أمسك بقلة وهمية في الهواء وأفهمها أنه الذي شرب بالأمس ماء الحياة الذي أعاده إلى دنيا البشر من جديد. مر وقت آخر بعد أن اختفى وجه الفتاة من الشراعة دون أن تقول شيئًا. بدا الوقت للأسطى أحمد وأخته بهية أنه بطول العمر كله. اضطرا للجلوس فوق حجرين بالقرب من الباب، أخيرا ها هي المزالج تفتح ويسمع لها صوت مزعج، قبل أن يفتح الباب بحذر، أطل وجه الفتاة من فتحة الباب. نظرت في كل الاتجاهات جيدا. تصور الأسطى أحمد أنها لم تره، فوقف وأشار لها. ولكنها استمرت في نظراتها. وبعد أن تأكدت أنه لا يوجد معهما أي شخص آخر. سارت على أطراف أصابعها وأخذتهما في يدها. ودخلت إلى البيت. هذه المرة عوملا كضيفين، وقبل أن يجلس الأسطى أحمد أعطى فتاته ما معه. الجاتوه والكولونيا والمنديل. وأخرج علبة

السجائر وأمسكها في يده التي أصبحت فارغة. عزم على الحاضرين بالسجائر الغالية. آخر رجل أخذ منه سيجارة أشار له أن يقدم للسيدات، تردد برهة. ولكن الرجل أخذ منه العلبة وقدم سيجارة للأم ثم للفتاتين. الرجل لم يقدم لفتاته الصغيرة سجائره فحمد الله.

في داخل البيت كانوا أربعة رجال والأم وبناتها الثلاث، الملابس ليست مسواه. وشكل الرجال والنساء معا يؤكد أنهم كانوا نياما، النظرات تائهة وشعر الأم وبناتها منكوش وقمصان النوم ليست مستقرة فوق الأجساد. التي تعاني من حالة اضطراب مفاجئ. نظر أكبر الرجال الأربعة إلى الأم بغضب. قالت بصوت حاولت ألا يسمعه الرجل الغريب:

ـــ إنه ليس من زبائننا.

تساءل الرجل:

ـــ أول مرة يحضر؟

أؤكد لك.

ـــ كيف وقد أتى ومعه المرأة التي يريدها؟

رجل آخر قال للفتاة التي كانت تجلس بجانبه:

ـ يبدو أنه مصاب بمرض الرغبة في النوم فوق الأجنة في بطون الحوامل.

ضحك الرجل الثالث:

ـ إنه يبحث عن شهود إثبات للحظة الجنس الرهيبة.

والدهشة والترقب والفرحة لم تعط الأسطى أحمد فرصة سماع الكلمات التي قيلت بصورة أقرب إلى الهمس. وكان الرجل مشغولاً بحبة القلب. أما أخته بهية فقد فهمت بعض الكلام وإن كانت لم تفهم الباقي. بدا الموقف ثقيلاً لا يطاق. فالكل في حالة الدهشة والاستغراب، الأسطى أحمد هو الذي بدأ الحديث. ذكر فتاته بنفسه وقدم لها أخته بهية.

هتف الكل في صوت واحد:

ـ أخته؟.

قالت الأم لنفسها، كنت أتصورهما من العشاق، يبحثان عن مكان ما وأن أحد أحبائنا أعطاهما العنوان، أما حكاية أخته فهي مسألة تعقد الأمر كثيرا. بعد الكلام أتى الصمت المتوتر المشحون. لم يجد الأسطى أحمد ما يقوله. نظر إلى أخته لكي تسعفه وتتكلم، ولكنها صمتت. تخلت

عنه. وبدت له وكأنها غرقت في صمتها. اضطرت الأم لبدء الحديث قالت:

ـــ خير يا جماعة.

هذه المرة أيضا تكلم الأسطى أحمد. طلب من الفتـاة إحضار الجاتوه على الضيوف، فسارت الفتاة إلى المطـبخ، وعندما عادت أخرج الأسطى أحمد مطواة قديمـة وفتحهـا ببطء، صرخت الأم من الرعب بمجرد أن شاهدت المطواة، ولكنها رأته يستخدم المطواة في فتح علبة الجاتوه فهدأت، قدم العلبة للضيوف فهجموا على الجاتوه بجوع حقيقـي امتـدت الأيدي وتزاحمت ولم تأكل بهية. ولم يأكل هو. رغم أنهما لا يذكران آخر مرة أكلا فيها الجاتوه. خاصة الذي يبـاع فـي البنادر. لم يأكلا لأنه ليس مـن اللائـق أن يأكلهـا هديـة أحضراها بنفسيهما. أصبحت علبة الجاتوه فارغـة تمامـا. أخذها ووضعها بجواره فهي تنفع في منزله. عـاد الموقـف إلى ثقله الأول، استعجل الرجال الانتهاء من الأمر وهجمـوا من جديد على علبة سجائره. اضطرت الأم إلى سؤاله، تلعثم ولم يجب.أخيرا تكلمت بـهيـة. قالـت ببسـاطة إن أخاهـا البشمهندس أحمد. جاء في طلب يد المحروسـة الصـغيرة،

وأشارت للفتاة، ضحك الرجال الأربعة. والأم ضحكت ولكن في نفسها. الأختان الكبيرتان حسدتا الصغرى، والصغرى جرت إلى حجرتها. ارتمت على السرير وبكت، الأم استوعبت الموقف بسرعة، دخلت وراء ابنتها الصغرى، وطلبت منها أن تختلي بهذا العجوز المجنون، أن تأخذ كل ما معه. قالت لأمها من خلال الدموع إن هذا الرجل حضر بالأمس لأول مرة، كان عطشانًا يطلب ماء، رأت التعب وهد الحيل يطلان من وجهه، وهو يشرب، رأت فيه أباها الذي لم تشاهده أبدًا، أتت إلى هذه الدنيا بعد وفاته والأم لم تحتفظ بصورة له فبقي معنى مجردا في الذهن. عندما شاهدت حنجرته تصعد وتنزل وسمعت صوت شربه، قالت هذا أبي فعلا، لهذا عاملته بكل الحب الذي تكنه لوالدها في قلبها، وطلبت منه أن يعود مرة أخرى، ولم تتصور أن تصل المسألة للحب وطلب الزواج أبدا. كل هذا الكلام لم يصل إلى قلب الأم، كررت طلبها، رفضت الفتاة، وأصرت الأم ولأن الفتاة تعرف أن الضرب والتوبيخ هو نهاية المطاف، قبلت، اتجهت إلى الأسطى أحمد.. وبقايا الدموع عالقة برموش العين الطويلة التي تغطي فدانًا من الأرض البكر، أمسكته من

يده، سحبته وراءها في صمت إلى حجرتها، في الحجرة أجلسته على كنبة مواجهة لسريرها ارتمت على صدره وأجهشت بالبكاء. فرح وقال إنها دموع الحب الذي فاضت به نفسها طلبت منه أن يعطيها كل ما كان معه، كان سعيدا وهو يعطيها النقود والمحفظة والمطواة، أما هي فلم تكن سعيدة أبدا، احتضنته وقبلته ونزل خيطان من الدموع من عينيها، دخل أحدهما فمها وهي تتذوق دموعها قالت له:

ـــ لا تحضر إلى هنا مرة أخرى أبدا.

كررت قولها أكثر من مرة، ووعدته إن تمكنت هي من الإفلات، ستحضر إليه وستجده، من دهشته وعدم فهمه لم يعطها عنوانه، وشعر بالحزن يصل حتى نخاع عظامه.

أثناء وجود الأسطى أحمد مع الفتاة في الحجرة قام رجل، أخذ الابنة الكبرى ودخلا إحدى الحجرات، وإن تركا الباب موازيا، ورجل آخر أخذ الابنة الوسطى ودخلا حجرة مقابلة، وأخذ يتعجل الأم، والآخر فهمت بهية أنه كان ينتظر المحروسة التي حضر إلى هنا من أجل خطبتها ولكي تنهي الأم الموضوع قامت من مكانها وجلست بجوار بهية، وقالت لها بصوت إنساني لأول مرة منذ حضورها، إنهما امرأتان

وتفهمان بعضهما جيدا، الرجل في عمر جد البنت وليس أبوها فقط. وهي لن تزوج الفتاة إلا بعد أختيها، وهناك قريب لها. من نفس عمرها، تكلم بشأنها، ثم إن العائلة لا تتعجل الزواج، والأم تعتقد أن بهية تفهم جيدا ما تقوله إنها ولية، والله أمر بالستر، ولهذا فهي تطلب من بهية أن تكون هذه الزيارة هي الأولى. وهي أيضا الأخيرة. وأن تقنع أخاها بذلك دون أن تؤذي مشاعره أو جرح أحاسيسه.

في طريق العودة. احتارت بهية كيف تخبر أخاها بالأمر دون أن تسبب له مزيدا من الألم. ولكن الحزن كان ينسال داخل الرجل والدموع الدافئة كانت تسح في أعماقه.

قالت له:

ـــ مر وقت طويل قبل أن يفتحوا.

زادت الكلمات من إحساسه بالمرارة.

ـــ أربعة رجال وأربع نساء وكل اثنان كانا في حجرة.

فتح فمه ولكن لم يرد.

ـــ كانوا عرايا تماما.

كاد أن يضربها. توقفت، استدارت، نظرت إلى البيت الغارق في الصمت، والذي بدأت ملامحه تذوب وسط غبشة المساء، كانت النوافذ قد أغلقت، والباب فصل داخل البيت من عالمنا.

قالت بصوت أقرب لهديل الحمام في البناني:

ـــ أنهم يكملون المسألة الآن.

أشار بيده، قال إن ما سمعه يكفي. وأكثر. بعد أن ركبا قطار المساء. وتحرك بهما عائدا إلى البلد، وكانت مصابيحه تهمس بضوء لا يكفي لكي يرى الإنسان الجالس أمامه فتبدو المرئيات كالأشباح، اقترب الأسطى أحمد من أخته بهية وقال لها:

ـــ هل لي من طلب أخير..؟

ـــ قالت:

ـــ تحت أمرك.

أشار لبطنها بيد مرتعشة، وطلب منها أن تسمي من في بطنها أحمد.

همست:

ـــ إن كان ولدا.

قال بصوت عال:

ـــ أنا متأكد سيكون ولدا.

نظرت إليه، بدا لها أنه كبر مائة سنة مرة واحدة في هذه اللحظات القليلة. وضعت يدها على يده. حاولت أن ترضيه، ولكنها قبل أن تفتح فمها، سمعته يقول للظلام الذي يطل عليهما من خارج القطار:

ـــ أنا قليل البخت..

نظرت إليه، لمحت خطين يلمعان على خده. يتوهان بين التجاعيد هابطين إلى أسفل..

لقد كان يبكي.

الجفاف

في الصباح، صحا من نومه، فتح عينيه، بدا اليوم بذلك الإحساس بأماكن الألم في الجسم، طالعه سقف الحجرة، جلس، حاول الوقوف، أحس بدوار، خيل إليه أن الأرض تدور والجدران تلف، فأدرك أن هيكله مريض، خلع جلبابه الوحيد الذي كان ينام به على اللحم، مر بيديه على جسمه، توقفت أصابع يديه بين ثنيات اللحم، هالته البرودة المنبعثة من جلده، فهمس لنفسه (يا الله حسن الختام) ارتدى ملابس الخروج، ركب مداسه. في طريق خروجه، مر على الحظيرة، كانت تطل من داخلها العتمة، وكانت زوجته تجلس تحت الجاموسة. تمسك الضرع الممتلئ بين يديها، وتضع بين فخذيها شالية الحليب، إنه يسمع صوت اصطدام قطرات اللبن الدافئة، بقاع الشالية، وبخار اللبن الدافئ يستريح على وجه زوجته فتزيده احمرارا، دار بين المواشي، نظر في المزاود أمامها فوجدها خالية، فاستشعر في نفسه معنى القحط والأيام العجاف.. استدار، وكان جو الحظيرة يعبق برائحة اختمار الأرض ببول وروث البهائم طول الليل.

خرج، في المسجد، توضأ وصلى، إن بخار الصبح يخرج من أفواه الرجال مع تمتمات الصلاة.

ـ التحيات الله، الطيبات المباركات.

ختم صلاته، رفع يديه نحو سقف الجامع، دارت عيناه المشربتان بالرجاء على حيطان الجامع الأربعة.

أطبق بكفيه على ملامح وجهه المجهدة. قبل يديه، وكان بين شفتيه الجافتين.. وجلد يده الخشن المشقق دفء غريب.

ـ أنا نفسي في الملوحة يا سي ورداني. في لحظة دخوله منزله، كانت زوجته تقف وسط الدار، بدت له داره واسعة عليهما بمفردهما، وأن زوجته تتحسس بطنها، ابتسم لنفسه قال لها إنه سيحضر لها الملوحة من السوق القادم. تناول طعام إفطاره، لُقيمات مكسورة مغموسة بجفاف الأيام، شرب الشاي، سأل زوجته إن كانت تطلب أي شيء، قال لها إنه سيحضر وقت القيالة للغداء معها، وسيترك الحقل والمواشي في رعاية جاره، في الحظيرة، فك رباط الجاموسة، والحمار، والماعز الصغيرة. وضع على الحمار بردعته أمسك بمقود الجاموسة في يده،

خلال حواري البلد تجنب برك المياه في الحواري الضيقة، تناهى إلى سمعه صوت الراديو، إنها نشرة الأخبار، تأتي من راديو في دكان بقال صغير، وكان الأطفال الصغار في الطريق إلى مدارسهم، إن ورداني ينظر ناحية الأطفال، بأسى ويقرر لنفسه، إن هذه الكائنات الرائعة، ستظل حلما غريبا بالنسبة له أبد العمر إنه يتخيل ابنه، ذلك الشيء الرائع المجهول، وهو في الطريق إلى مدرسته، حاملاً كتبه بين يديه، سائرا مع زملائه.

في الطريق إلى الحقل، وتراب الأرض مبلل بقطرات الندى، والشمس تخرج على البعد، من الأفق الشرقي، صافحت عيناه النباتات، بدت له الحقول كراحة يد مستوية، غير أنها راحة يد رصاصية اللون، إنها أول أيام الربيع، وكل شيء حوله يؤكد معاني الخصب، كانت الأرض غامقة السواد، مبلولة بالندى، وكانت المزروعات الخضراء، تبدو وسط سواد الأرض كأمنية حلوة المذاق، إن نداءات الحيوانات والطيور، تعلو وتتجاوب في فضاء الحقول الواسعة فتتحول إلى نغمة اشتياق وسط الحقول، فكر ورداني إنه بعد يوم، عدة أيام، أسبوع، شهر، عادة أشهر، قد تلد

زوجته طفلاً صغيرا يحمل اسمه، وعندما يعود إلى البيت في آخر النهار، وعلى باب البيت ونسمات الماء الطرية تكنس الحواري من حرارة اليوم، يقف الطفل الصغير، قطعة صغيرة من اللحم الأحمر، تقف بين قدميه، يقول ويداه الصغيرتان تلوحان أبويا جه، أبويا جه، ويرفعه بين يديه، يقبله، يدخل به المنزل، ورداني يمر الآن بحواري البلد، شارعها الرئيسي، إنه يتبادل تحية الصباح مع الرجال الآخرين، تخرج من البلد، يترك البيوت الواطئة خلف ظهره، وعلى مدى البصر، كانت الحقول تمتد أمامه إلى ما لا نهاية. على رأس الحقل، بالتحديد، عند مدار الساقية، تحت شجرة الصفصاف ربط المواشي وخلع جلبابه، والطاقية، والصديري تأكد من وجوده المحفظة الجلدية فيه. فتحها، أغلقها. لم يكن فيها سوى، نقود قليلة، قروش متآكلة الأطراف، في المحفظة أيضا،خطابات قديمة، إيصال من الجمعية التعاونية، إعلان من محكمة، إمساكية شهر رمضان الماضي. إيصال بمبلغ سيقترضه من بنك التسليف، الأسبوع القادم.

وفوق كل هذا، يوجد في المحفظة، ختم أصفر ومطواة حادة لف ملابسه، نفض مداسه من التراب العالق به، وضع هذه الأشياء على فرع شجرة الجازورين، نزل حقل البرسيم، وضعه أمام الماشية، وكانت أعواده تلمع تحت ضوء الشمس الصفراء. جلس فوق مدار الساقية، استراحت عيناه على زرقة السماء الصافية، ارتفعت الشمس، نام على ظهره تحسس بباطن يده حبات الطين على المدار، أمسك بقطع الطوب، رماها في مياه القناة الصغيرة، تكسرت أمواج المياه الهادئة، أدار عينيه في الأرض والأفق البعيد، بدت حوافي الحقل مالحة، تطفح ملحا أبيض، وفكر، في يوم ما قد تخصب الأرض، تكسوها خضرة رائعة تخصبها..

ـــ ارمي بياضك..

كانت مساحة الرمل الصغيرة، تبدو في غموض الأيام القادمة، وكانت أصابع الغجرية المعروفة تعبث بالرمل، مد ورداني يده في جيبه، أخرجت أصابعه قطعة كانت تعرف مكان من قبل، رماها على الرمال، وشوش الدكر، ذكر اسم أمه، واسم أبيه.

نظر إلى الخطوط الطويلة والعرضية أمامه.

ــ أمامك سفر، سافرت أم لا؟

ــ على باب كريم.

قالت الغجرية كل شيء، طلبت أن يكفيه الله عين الحسود، وذكرته بنذور نذرها ونساها في زحمة الحياة، أكدت لكل الجالسين، أنه لا يخرب البيوت سوى عين الحسود، أو نذر منسي، وضربت له الأمثلة، وران على جمع الرجال صمت مشوب، وقام ورداني، غير أنه لم يقل ما كان يود قوله. لقد جلس، تكلم، استمع، غير أن ما بنفسه، ظل سره الخاص، وتقدم إليها رجل آخر غيره. إن الغجرية ما زالت تتكلم والجميع ينصت إليها. سألت من عيون الرجال أحلام لم تتحقق أبدا ووعود نسية. ومن الأشداق نَزلت أحرف من كلمات مدفونة في حبات القلوب، وسأل ورداني نفسه، دونما كلمات، متى يأتي زمن تتحقق فيه الأحلام؟.

حدث هذا بالأمس، وبعد أن ترك الغجرية، ذهب إلى الجامع، وبعد الصلاة، جلس في صحن الجامع، وكان الظلام قد حل، كان هناك الشيخ محمود، عرض عليه حاله، سأله

المشورة، قال آيات من القرآن الكريم، وروى أحاديث نبوية شريفة.

حكى حكايات كثيرة، لف ودار في تذكاراته القديمة، وبعد حكايته، كان موعد صلاة العشاء قد حل، قام يستعد للصلاة مع الآخرين، أم الشيخ محمود المصلين.

إن ورداني يرفع يده.

ـــ نويت أصلي صلاة العشاء جماعة.

ـــ الله أكبر.

*

ـــ وكل نفس ذائقة الموت.

الوجوه مستطيلة ممصوصة، باهتة المقل، الصمت يتلل بين الكلمات عظم الله أجرك.

ـــ شكر الله سعيك.

آيات القرآن يقرؤها مقرئ مفقوء العينين، مات والدي، وقبل أن آتي، ذهب إلى الشيخ بعيد، ذات صباح، ارتدى جلباب الصوف الغامق، وركب حمارته، وهناك، فتح الشيخ الكتاب وكواه بالنار على ظهره، وفي وسط رأسه، ووضع له فوق الكلى ورقة عنب خضراء، وطلب منه أن

يغيرها كلما يبست، وبعد وفاة والدي بأيام، حضر أناس غرباء بالليل، ونقلوا حدود حقلي، أخذوا منه مساحة كبيرة ضموها لحقول الجيران، وفي صباح اليوم التالي أشارت عليه أمه، أن يقدم شكواه، في المركز، قضى يوما وليلة، أخذوا أقواله، سألوه عمن يتهمهم.

واطلعوا على حيازة الأرض، وبالليل، خلف مبنى الحجر، اعتدى عليه رجال مجهولون، ضربوه، حتى بصق دما وأجبره أحدهم أن يسمي نفسه باسم امرأة، وفعل ما طلب منه. وفي الصباح، عاد إلى البيت، وأصبحت مساحة الأرض التي أخذت منه، جرحا في حبة القلب. كانت أياما عصيبة.

*

في آخر الليل، تتسع الحجرة عليهما، تبدو زوجته ريانة العود، الشعر مفكوك تنز منه قطرات المياه التي لها رائحة النفوس البشرية إنها ترتدي جلبابا واسعا على اللحم، تجلس بجواره خجلى، يقترب منها، وبداخله يرتجف من الخوف، يتحسس بأصابع يده الخشنة ملمس جلدها الناعم

وكان يخيل له أن الرجال المجهولين خلف باب الحجرة فيغمض عينه.

ـ مالك؟

يفزع من سؤالها، يجمع في يده غدائر الشعر الليلة، تزداد العيون اتساعا، وفي الصباح يقف فوق كرسي من الخشب في الطست، خلف الفرن يدلق المياه الباردة فوق جسمه من كوز صغير، يرنو إلى زوجته بقلق يحاول أن يتساءل، ثم يجيب على التساؤل ويخرج.

*

مدار الساقية مرة أخرى.

قام ورداني من نومه، لم يكن هناك ما يمكن القيام به سوى الانتظار، فكر ورداني أنه لا يوجد في البلد ما يمكن عمله.

فأدرك أن يومه طويل إلى أبعد الحدود، بحث بعينيه عن رجل يتسلى باللعب معه، وعلى البعد لمح رجلاً يجلس على مدار الساقية، رفع صوته، نادى عليه. وعندما حضر إليه يتحدث معه. إنهما يتكلمان معا عن دورة المياه، والأرض والزراعة وعندما لم تبق أية كلمات تقال. راح

الرجل يجمع قطع الطوب الأخضر والأحمر، ويكوم التراب فوق مدار الساقية. راح الرجل في صمت وببطء يحول أكوام التراب إلى عيون صغيرة متجاورة. ثم نفض يديه من التراب ونفخهما.

ــ هيا نلعب دور سيجاج.

ــ كلابك السمرة. مد ورداني يده، أمسك بالكلاب، راح يستعد للعب وكانت تهب عليهما نسمات هواء ربيعية مشبعة برائحة الصباح الطرية.

الشونة

غلام الطيور

بعد بحثٍ طويل حصل الولد عباس على عمل. لمدة ثلاثة أشهر هي فصل الربيع. لن يذهب خلالها إلى المدرسة. في أيامه الأولى بدا العمل محببا إلى نفسه. ذهب إلى الشونة. وقف أمام أمين المخزن سلّمه صفيحة مستعملة، مقطوعة من جانبها. وعصا من الخيزران غليظة وقصيرة، وطاقية شمس بيضاء لها رفرف دائري. يظل وجهه من كل الجهات. حتى في وقت الظهر عندما تكون الشمس عمودية. بعد الأيام الأولى بدأ الولد عباس يختلف عن أبناء عمره في البلد. لم يقبض أجره بعد. ولكنه ينتظر ذلك اليوم، سيمتلئ جيبه بالنقود. كل ما يشتهيه سيصبح تحت أمره. في الليل. طلب منه الأولاد أن يحكي لهم ما يقوم به. شعر قبل الحكاية بخفقان في القلب. وجفاف في الحلق. طلب منه أمين الشونة عندما سلمه العمل أن لا يحكي ما سمعه أو يراه داخل الشونة، أن يعتبره من الأسرار التي لا تقال حتى لأمه نفسها، عاهد الولد عباس نفسه على كتمان الأسرار الرهيبة. صمد

في اليومين الأول والثاني. في اليوم الثالث لم يستطع الاستمرار. سقطت كل مقاومة بداخله. قرر أن يتكلم مع أصحابه عن عمله. في الصباح يأخذ العهدة من البيت:

ـ العهدة؟

ـــ طبعا.

لم يشأ أن يحددها، آثر أن تبقى العهدة معنى غامضا في نفوسهم المطلوب منه بسيط. أن يدور حول الشونة من كل الجهات. من لحظة بكة الشمس وحتى غروبها. يضرب على الطبلة بكل قوته.

يحدث صوتاً مزعجا. يجعل العصافير التي تعتدي على أقوات الشعب المخزونة في الشونة كأمانات تطير مبتعدة. ولكنه بدلاً من طرد الطيور. كان ينظر إليها. ميز العصفور من الحمامة واليمامة. أحب العصافير يقترب من المكان الذي تقف فيه. يلاحظ المنقار الصغير وهو يبحث عن حب القمح الأصفر الزاهي اللون. يعرف أنه في اللحظة التي سيرفع فيها العصا. لكي يضرب الصفيحة. يدور بعينيه في الجهات الأربع. تتوقف عيناه عند المكتب يتصور أن أمين الشونة شاهده من بعيد. يضرب الصفيحة بكل قوته. ثم ينظر

إلى شبكة الظلال المتحركة تحت العصافير التي طارت. تتحرك الشبكة، ويصبح الظل نقطة باهتة تذوب مع طيران العصافير عاليا. استدعاء الأمين. قال إنه غير راض عنه، فهو يبدو غير متحمس لعمله مثل الأيام الأولى. أكد له أنه يمتلك عينا سحرية يرى منها الكل. حتى لو كان في منزله نائما وقت القيالة.

ـــ إما أن تجتهد أو..

لم يكمل الجملة التي فهم الولد عباس بقيتها، اجتهد في عمله، لم يكن ينظر ناحية العصافير. يرفع رأسه ناحية السماء ويخبط، تغوص عيناه في الجهات الأربع ويخبط. يحدق في قرص الشمس ويخبط. ويدوس على العشب الأخضر ويضرب. تصور أن الأيام صفت. غير أنه من يومين. وقف أمام الشونة عدد من السيارات. ألوانها مغطاة بأتربة. فهم الولد عباس أنها قادمة من أماكنها البعيدة. نزل من السيارات أفندية. يرتدون ملابس كالتي يشاهدها في صور سكان البنادر البعيدة . لفوا حول الشونة على شكل موكب. حضر له الملاحظ. طلب منه أن يشتد في عمله.

فالموكب بعثة أتت من مصر. للتفتيش على الشونة. عندما اقتربوا منه نادى أمين الشونة. قال لهم وهو يشير إليه:

ــ هذه هي الوسيلة البدائية التي نعتمد عليها.

قال رجل ضخم. شعره أبيض ويضع نظارة على عينيه:

ــ غلام الطيور. هذا تخلف.

تركوه يواصل عمله. ولكن الملاحظ طلب منه السكوت حتى يستمعوا إلى ما يقوله الدكتور. لم يفهم ما هي علاقة الدكتور بالشونة. قال الرجل السمين: إنهم يفكرون في تطوير هذه الوسيلة البدائية وأشار ناحية الولد عباس، فنظر الكل نحوه. مما أشعره بخجل. أكمل الرجل: إنهم حضروا لعمل دراسات ميدانية للوصول إلى وسيلة تساير العصر وإنهم بعد رحلات في كل محافظات مصر. آخرها رحلتهم إلى هذه الشونة. سيعقدون مؤتمرا ضخما في القاهرة. تحت شعار الحكومة المصرية تعلن الحرب على العصافير. التي تهدد الاقتصاد القومي. ومصر تعاني من أزمة اقتصادية حادة. ولابد من الوقوف في وجه هذه المؤامرة العصفورية ضد مصر. تقدم موظف كان يقف بجوار الدكتور كظله.

وقال إن الدولة اعتمدت خمسة ملايين من الجنيهات للحرب ضد العصافير يصرف منها هذا العام مليون والباقي في ميزانيات السنوات القادمة. انصرف الموكب واستمر الولد عباس في خبطه بشدة لم يستطعها من قبل: اقترب الملاحظ منه سأله:

ـــ هل عرفت أمر اللجنة؟

رد عليه الولد عباس:

ـــ لا.

ضحك الرجل وقال:

ـــ كلها أسبوع ويستغنون عن خدماتك.

قال له الرجل إن البلاد أعلنت الحرب على العصافير. ابتداء من الساعة السادسة من صباح الغد. وهذا معناه أنه لن تكون هناك عصفورة واحدة في بر مصر كله. لف قلب الولد عباس حزن غريب لم يكن ما أحزنه أنه سيصير بلا عمل. وسيفقد تميزه عن أبناء عمره. وأن أمه التي تربي أخوته اليتامى. وتعد الأيام والليالي في انتظار أجره. الذي لا يعرف كم سيكون، ستفقد مصدر الدخل. كان ما يحزنه أمر آخر. مجرد أن يتصور مصر كلها بدون

عصفور واحد. أمر محزن. أتاه صوت أمين الشونة. يطلب منه الاستمرار في عمله بتثاقل ودون رغبة في العمل. ارتفعت يده بالعصا. ضربت بها فوق الصفيحة.

الساعة التي تكذب

مشكلته هي الساعة، بالتحديد ساعات أربع. في منتصف كل ضلع من سور الشونة توجد ساعة قديمة. تقول ملامحها الخارجية إنها شاهدت فرعون الذي عاصر موسى عليه السلام. يتسلم الشونة في لحظة الغروب الموحشة ينظر بلا نهايات محددة. يحضر أمين الشونة دفترا قديما متآكلاً لا يعرف أحد عمره. أول الصفحات التي نجت من التآكل يعود تاريخها إلى سنوات مضت. يفتح صفحة جديدة يكتب. إنه في يوم، في ساعة قد قمت أنا أمين الشونة بتسليم محتوياتها من الخفير المعين لحراستها نهارا إلى الخفير المعين لحراستها ليلاً. حسب كشف المحتويات المرفق.

وقّع هنا.

يشير الأمين إلى مكان في ذيل الصفحة،يعطيه القلم، يكتب اسمه، في هذه الليلة يسمع الخفير صوت الريح تخبط

في الزرع والبيوت وشواشي الأشجار تعبث بها هبات رياح الليل القادم، يتسرب الضوء الباهت. يمتص هدوء الليالي الريفية أصوات النهار المعتادة. ويبقى الخفير وحيدا، لابد من البقاء هنا، يدور حول الأضلاع الأربعة التي تشكل سور الشونة. يشعر بالحسد للخفير النظامي في القرية البعيدة. على الأقل يستطيع أن يصل وأن يقضي حاجته. وأن يذهب إلى أولاده لتناول طعام العشاء معهم. أو أن يقبل دعوة أحد الفلاحين لشراب كوب شاي. وتدخين كرسي معسل. أما هو. لا يمكنه أن يتحرك بعيدا عن الشونة. بسبب السعات الأربع. التي تكذب عليه، لا يعرف عنها. سوى أنها وصلت إلى مصر أيام الإنجليز. أحضروها لتساعدهم في الكيد للمصريين.

لابد وأن يمر على الساعات الأربع. يملأها من مفتاح في أحد جوانبها أو كانت تملأ كلها في وقت واحد. لدبر أموره. ولكن كل ساعة تملأ في وقت مختلف عن الأخريات. كل ربع ساعة عليه أن يملأ إحداها، إن أهمل تتوقف الساعة. وفي الصباح. لن يتسلم منه الخفير النهاري الشونة. تبدأ المتاعب مع النهار. يحول بخطاب رسمي. إلى

المديرية في البندر مرورا بالإدارة في المركز. يدخل مكاتب. يقف أمام موظفين. تقول ملامحهم إنهم مستريحون في حياتهم. مساحات السواد في أعينهم ونعومة جلد ذقونهم. وترتيب شعورهم، يؤكد أنهم ناموا طول الليلة السابقة. الجفون منتفخة والشفاه متورمة من كثرة النوم يشاهدونه، يفتحون الدفاتر ويخرجون الأوراق. سين، جيم. سيم جيم، يرد عليهم. يترجمون كلماته المكسرة إلى جمل يكتبونها في الأوراق يأخذون منه الختم. يوقعوا به بالعلم على الجزاء الذي وقع عليه. خصم مرتب خمسة عشر يوما من ماهيته الشهرية والتي لا تتعدى ثمانية جنيهات. والهموم تجر بعضها البعض مثل سحب الشتاء. ثمانية جنيهات وفي البيت ستة عشر فما مفتوحا عن آخرها لن تكفيها الغلال التي يحرسها في الشونة. إنه يسهر ليلاً طويلاً معذبا بالساعات الأربع، وفي النهار يذهب إلى حقله الصغير. أو إلى حقول الغير. ليعمل. في الليل تؤنس وحشته سوى هذه الساعات الأربع. وعندما يخر الليل عن آخره ويستقر على جلبابه ظل الفجر يكون التعب قد وصل إلى نخاعه، يسلي نفسه، يختار الساعة التي يتمكن من رؤيتها، في الليالي الأولى من الشهر

يكون حواره مع الساعة التي تواجه الجهة الغربيـة، حيـث تنعكس عليها أشعة قمر الريف، في النصف الثاني يخـتص بحديثه. ساعة الجهة الشرقية. التي تواجه البلد. فـي حديثـه يحكي للساعة التي تكذب عليه في الصباح. وتقدم في صمت تقريرها عن يقظته.

ـــ البنت فتحية ولدت.

يخيل له في صمت الليل وسكونه أن ملامح السـاعة تستفهم منه، تطلب الشرح تود إكمال الحكاية، يستطرد مكمـلا شرح الأمر. والبنت فتحية تزوجت منذ عام. من ابن أخيـه. ظهرت عليها أعراض الحمـل. وعنـدما حـان موعـدها. حضرت لتلد في منزل والدها. أحيانًا يتصـور أن السـاعة تسأله عن الأخبار. يضع يده عليها. يجلس بجوارها. ويبـدأ حديثه الطويل. الساعة من حديد انطفأ لونه مع مرور الليالي الطوال، مثبتة فوق عامود من الحجر ارتفاعه متر ونصف. الشونة محاطة، بحقول الفلاحين من كل جانب. على يمينهـا طريق رئيسي يوصل البلد بالمركز. الساهرون فـي الليـل والمارون على الطريق. يسمعون صوت الخفير. يتوقفون. لا

يسمعون صوتًا آخر يحادثه. يكتشفون أن الرجل لا يكلم أحدا.

ـــ خفير الشونة أصابه مس. لا أحد يعرف متى بدأت الشائعة، الهمس له صوت عال في القرى تقترب الشفتان من الأذن هامسة بالسر الرهيب. يطلب المتكلم من السامع أن يكون السر في أعمق آبار العالم.

ـــ خفير الشونة مجنون.

تطوع أبناء البلد بشرح الأمر. الشونة مكان مسكون بالجن والعفاريت. رد الشيخ. الجن لا تظهر إلا في الأماكن التي قتل فيها بشر. الشونة لم يقتل فيها أحد. قال الفلاحون: إن القتل يتم في الشونة يوميا. فهم يذهبون إلى الشونة لكي يظلموا. الظلم نوع من القتل البطيء، قتل على درجات. مكان مثقل بأرواح كل من قتلهم الظلم. ما يحزن الفلاحين أن العفاريت لا تظهر نهارا الكل يتمنى أن تظهر وقت وجود الكاتب والملاحظ وأمين المخزن ما ذنب الخفير الذي يكون بمفرده في الشونة ليلاً.

ـــ الخفير هو الإنذار.

هكذا قالوا. العفاريت ترسل إنذارها من خلال الخفير. أوقفوا الظلم فورا. وإلا فالدور عليكم جميعا ولن يستثني أحد. كبرت الحكاية من فم إلى فم آخر. أضاف كل فم لها كلمة جديدة. الليلة الأخيرة. تحدث فيها الخفير أكثر من أي ليلة مضت. شعر بحركة حول الشونة. لم يعرها اهتماما. ارتفع صوته وهو يتساءل: من أين يأتي بتكاليف ولادة فتحية. وإيجار قطعة الأرض الصغيرة وثمن الذرة والقمح المطلوب لكي يكمل الطحين. لم ترد الساعة. صاح بصوت عال. لم تمد يدها بالمبلغ، هجم عليها. خبط رأسه فيها في الصباح سلمه أمين الشونة خطابا رسميا لم يكن محولاً للتحقيق كما تعود. بل كان الخطاب موجها إلى مستشفى الأمراض العقلية. ظل الرجل هادئًا، إلى أن قرأ له شاب متعلم الخطاب لطم الخفير. شق جلبابه الوحيد. صرخ وبكى، وتجمع حوله أطفال البلد وصل إلى منزله في زفة. انضم لها كل الذين كانوا في الجواري ودايرالناحية. على باب بيته الصغير. قال لزوجته بصوت باك:

ـــ الساعة الكذابة هي السبب.

خبط الناس كفًا بكف:

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله. جن الرجل.

أوزني أولاً

وقت الظهر، الجو حار والذباب يطن حول الشونة يتحول السور الخارجي في هذا الوقت من النهار إلى مربط للحمير. كل حمار يعكس حالة صاحبه. البردعة والحبل ووقفة الحمار تقول من صاحبه، بعض الحمير يحضر لها أصحابها أكلها في مخلة صغيرة يعلقها في رأسه. يدس الحمار أنفه وفمه فيها ويأكل. هناك من يحضر الحمار لحمل ما سيأخذ من الشونة. ومن يحضره الركوبة فقط. عليه بردعة فاخرة ألوانها زاهية. وفي فمه لجام نحاس أصفر. تتكسر أشعة الشمس على لمعانه. أما ركائب أصحاب العزب. فتحضر يجري خلفها ولد صغير ينزل صاحب العزبة ــ وغالبا ما يناديه الناس بكلمة يا حاج ــ بقفزة سريعة. يعطي طرف اللجام للصبي ويتجه إلى الشونة في مشية وقورة ومهيبة. أما الصبي، يمسك لجام الركوبة يتولى ربطها والوقوف بجوارها. إلى أن يحضر الحاج من الشونة. وقت القيالة. حضر فلاح. لم يكن راكبا. كان يسوق أمامه

حمارا هزيلاً فوق ظهره جوال قديم. تآكلت وبرته من كثرة احتكاكه بظهر الحمار. من تحت الجوال ظهرت سلسلة ظهر الحمار عظمة. الفلاح كان حافيا ويرتدي سروالاً وقميصا. ورأسه العاري تناثرت شُعيرات بيضاء في أنحاء متفرقة منه. في صمت وهدوء اتجه إلى سور الشونة، ربط حماره بعيدا عن الحمير الأخرى جمع له قليلاً من قش الأرز وعيدان الحطب الجافة. وضعها أمامه عبث الحمار فيها بأنفه الضخم. ثم نفخ فيها نفخة طيرتها بعيدا. دخل الرجل الشونة وبيده الحيازة وكان يبدو أن أمرا ما سيشغل تفكيره ذهب إلى أمين المخازن فقدم له الحيازة. ليعرف ما سيصرفه. لن يأخذ كسبا فهذا لا يحصل عليه إلا من يمتلك أكثر من خمسة رءوس ماشية فأكثر. كل ما حصل من أجله هو نصيبه من الأسمدة، كانت مسألة الميزان تشغل تفكيره. أمام أمين المخزن ميزان حكومي ضخم. يقول الكل إنه مضبوط على الشعرة. ولكن الفلاح لم يقتنع من قبل أن الميزان مضبوط. يزن له الأسمدة. وعندما يذهب إلى منزله يجدها ناقصة. يعود إليه شاكيا يضحك أمين المخزن يقول له: إن الأسمدة جفت في الطريق من الشونة إلى بيته بفعل الشمس والهواء.

وفي المرة الثانية قال له: الجوال لم يكن محكمـا. وبسـبب رجرجة الحمار المتعب. تسربت كميات كبيرة منه. احتـار الرجل ماذا يفعل. هل يضع جوال السماد علـى الطبليـة ويذهب إلى عامود الميزان. وحتى لو ذهب هل يستطيع أن يعرف المكتوب بالأمس كان في المستشفى. ليس مهما سبب ذهابه. فهو مريض منذ طفولته. يحمل أمراضا بعدد شـعر رأسه يذهب إلى المستشفى كل أسبوع. لمعالجة أحـد هـذه الأمراض. ولا فائدة. قبل أن يدخل إلى الدكتور. طلبوا منـه أن يخلع مداسه ولأنه كان حافي القدمين اكتفوا بأن قالوالـه أن ينفض قدميه من التراب العالق بهما. نظرت الممرضـة إلى توتر الميزان وحركة المؤشر وقالت:

ـ ٨٥ كيلو.

حفظ الرقم. نبتت في ذهنه ساعتها هذه الفكـرة. أن يطلب من أمين الشونة أن يزنه هو أولاً. إن كان الرقم هـو نفسه، اطمئن إلى الميزان. وإن اختلف أثـار معـه مشـكلة وليكن ما يكون. صفق الأمين بيديه. طلب جوال سما نترات شيلي. ولكن الفلاح أشار له بيديه. طلب منه التوقف أطلـت

من وجه أمين المخزن علامة استفهام تطلب الإجابة. قفز الفلاح فوق طبلية الميزان. قال للأمين بصوت لاهث:

ــ أوزني أولاً.

لدقيقة لم يفهم أمين المخزن الحكاية. استفهم منه لم يجب وعلى سبيل الفكاهة مد أمين المخزن حرك السنجة وعندما استقرت قال له:

ــ ٨٣ كيلو.

بهت الفلاح. تساءل هل نقص جسمي عشرين كيلو في ليلة واحدة. هذا معناه، أنه لن يبقى منه شيء بعد أسبوع. ثمة خاطر سعيد نبت في ذهنه. لا بد وأن الميزان غير مضبوط كالعادة. ولكنه سيكون في صالحه. سيأخذ ولن يعطي. فارق الوزن سيكون له لا عليه. نزل من فوق الميزان أحضر الشيال جوال سماد سليم. الجوال مدون عليه الوزن، ولكنه يوزن من جديد لأن أكثر الأجولة ينقص منها أثناء عمليات النقل والتفريغ. وزن الأمين الجوال. والفلاح يوقع بالاستلام كان يفكر في الفرق الذي سيحصل عليه نتيجة لعدم ضبط الميزان. في طريقه إلى منزله توقف بالحمار عند تاجر الغلال. وزن الجوال. ذهل عندما وجد أن الفارق لم

يكن في صالحه. وأن ميزان الشونة بسبعة أرواح. في كل مرة يزن بطريقة مختلفة عن الأخرى. الفارق كان ضخما وضع الجوال على ظهر الحمار. أداره، عاد. لا يعرف إلى أين بدأ يرتب كلمات الشكوى. ولكن لمن سيقدمها إن مجرد خروجه من الشونة يفقده الحق في الشكوى. رغم هذا ضرب الحمار بعنف وسار به بيد أنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل.

الرغبة في البكاء

منزله أقرب إلى سور الشونة لا يفارق المنزل أبدا.
يظل نائما على ظهره ناظرا إلى سقف حجرته الصغيرة. مشغولاً بعد كتل الخشب وعيدان البوص التي اختفى لونها الأصلي تحت طبقات السناج الأسود يتابع في نومه المخلوقات التي تسكن سقف حجرته، الصراصير الأبراص، يسمع أصوات الثعابين يقول إنهم ورد الدار. لا يمكن أن يؤذوا أحدا من أهل بيته. نومة كل يوم، لا يقوم منها إلا ليذهب إلى المقهى القريب أو الغرزة كما يجب أن يسميها لم تعرف قدماه مكانًا آخر. يعيش في انتظار دائم. انتظار أن تحضر عربة إلى الشونة. ينزل الأكياس والأجولة من العربة

إلى الشونة. إن كانت آتية من المستودع الرئيسي. ويحملها على عربات كبار أصحاب الأراضي. عندما يتسلمونها من الشونة. تحضر العربة ينادون عليه من الخارج، يقوم من رقدته أو يترك جلسته في المقهى يأخذ عدة الشغل، الخطاف، الكتاف البردعة، حبال يربط بها يديه وقدميه ووسطه يذهب

إلى الشونة. يقف بجوار العربة المحملة في انتظار أن ينتهي السائق من إجراءات تسليم الحمولة الواقفون حول السيارة يبدأونه بالكلام:

ـــالحمولة صعبة.

يرفع يده دليل الاستهانة. وهنا يبدأ الفصل الأساسي في كلامه. يترحم على أيام مضت ولن تعود. يشير إلى مكان الشونة الواسع. يقول إنه كان باحة لبيع قطن البلد. هنا القباني. وفي هذا الركن تقف السيارات. وفي المكتب الذي لم يهدم بعد. كانت توجد رزم الأموال أثمان قطن البلد. تسيل من شدقيه حكايات وكلمات. وقصص عن القناطير الخمسة التي حملها فوق ظهره. شعر يومها بضيق في الصدر. وفوران في عروقه كادت الدماء أن تنفجر من بعض

العروق. صعد على السقالة خطوة خطوة. وحبات الأعين المحيطة تتحرك معه. في خوف وحرص. أما اليوم..

ــ لم يبق لنا سوى الكسب والذرة والبطاطس.

بعد لحظة صمت يتنهد:

أيام. شاب من أبناء الزمان البخيل قال له. إنه لا يصلح

لحمل أكياس القطن. الهزيلة التي تعبأ في مواسم القطن الآن. دون وعي منه. امتدت يده إلى أسفل بطنه، تحسس جلد البطن الذي تكرمش بمرور الزمن. عرفت أصابعه مكان الفتق الذي أصابه منذ سنوات. من ساعتها وهو يتسع. ذهب إلى الأطباء، لم يجد عندهم حلاً سوى الجراحة. سألهم كم يستغرق من الوقت قالوا له أكثر من شهر حسب الأمور في ذهنه ثلاثين يوما. تنقضي دون مليم واحد يدخل بيته، كيف يعيش؟ هو وزوجته، لا دخل لهما سوى ما يحصل عليه من الشونة. حياتهما من اليد إلى الفم. اليد أتت بالكثير. والفم ابتلع ما أتت به اليد. وفي كل مساء. ينام. لا يؤنس وحشته غرف الحصيرة سوى خوفه من الغد. الذي لا يعرف كيف سيقضيه ولا كيف سيمر عليه. أيام القطن لم يكن يعمل سوى

في الموسم. وما كان يحصل عليه يكفيه طول العام. فجأة ذهب التجار واختفت المحافظ المحشوة بأوراق النقد. حصر شبان صغار. قالوا إنهم من مندوبي التسويق التعاوني للقطن. في اليوم الأول. استغنوا عن خدمات الكل مرة واحدة. القبانب والشيال والكاتب والخفير والسماسرة ورجال الفرز. وعدوهم بمحاولة الحصول على وظائف لهم في الحكومة أو القطاع العام. فالإجراءات الجديدة لا يمكن أن تتسبب في إغلاق بيوت الأبرياء دون ذنب.

لن أحني رأسي للوظيفة

هكذا صاح الشليل في الباحة. عامله مندوبو التسويق بعطف. نادوه بكلمة يا أبي ولكنهم كانوا يحرمونه من أهم ما في العمر، أحب عمل إلى نفسه هو حمل أكياس القطن. ولحظة النشوة عندما كان يسمع الناس في المنطقة كلها يتحدثون عن قدراته الخارقة. الآن. يأتي هؤلاء الشبان الصغار. لكي يحرمونه من متعة العمر الوحيدة. بعد رفض الوظيفة عاد إلى منزله. بدأ يشعر بألم في مكان الفتق. لأول مرة يقول آه يطول. التأوه في الأيام التالية. وجد نفسه بدون

عمل. ذهب إلى الباحة وقت العصر. وقف في مكان بعيد. راح ينظر إلى المكان. وجد شبانًا صغارا، يحملون أكياس القطن الهزيلة. لا يوجد بداخل الواحد منها نصف قنطار، يهتزون بها فوق السقالات المصنوعة من الأبلكاش بصق على الباحة والأيام الخائنة. وحاول أن يصيح فيهم. لاعنًا إياهم. ولكن الفتق منعه.

المطلوب هو ألا يتسع الفتق أكثر من هذا

حذره الطبيب. قدم له قائمة الممنوعات، أن لا يقفز من مكان مرتفع.عدم الجري بسرعة. لا يحمل أشياء ثقيلة. الهدوء وقت الجماع مع حريمه. فالمسألة ليست استعراضا للعضلات. تجنب القيام بتمرينات رياضية عنيفة.

لو استمر الفتق ستخرج منه الأحشاء

تمتد يده إلى مكان الفتق ويبحث عن مصارينه. هل خرجت من الفتق أم لا؟ نصحه الكل بإجراء العملية في مستشفى البندر. رفض. قال إن كل الذين دخلوها خرجوا منها على النعوش. مشكلته أعمق. من أين يعيش؟ بمرور الأيام دخل بقدميه إلى دائرة الانحناء. عندما أقيمت الشونة. طلبوا منه أن يعمل شيالاً. لم يكن يتصور أن ينحني ظهره

ليحمل أي شيء غير القطن. البطون والأفواه لا تعرف هذا المنطق. قبل أن يتدرب بعض الشبان على العمل. بالتدريج اكتشف أنه هو الذي سيقوم بالمطلوب. يوم أو وضع جوال الفول على ظهره. شعر أن أحشاءه ومعدته نزلت إلى مؤخرته هجمت عليه رغبة في التبول. سعل سعالاً جافًا فأدرك أن صحته لم تعد تساعده. قدم أكثر من طلب ليعين شيالاً.

لا توجد درجة خالية

منى نفسه بالوظيفة الثابتة. أجل إجراء العملية لما بعد التعيين، حتى يضمن مرتبه. وهو في المستشفى لتعيش منه رفيقة عمره. بالأمس قرر أن يكلم الأمين. في موكب الصباح. ذهب إلى منزله مبكرا ليلقاه قبل حضور الآخرين. فوجئ بوجود غلام طيور يبكي. قال إنه عرف أنهم سيستغنون عن خدماته. أمه وإخوته لا دخل لهم سوى القروش التي سيأخذها من الشونة أول الشهر. هداه. شعر بتشاؤم يتسلل إلى نفسه، خرج أمين الشونة ساهما حزينًا. بدا مرهقًا وكأنه لم ينم منذ سنوات مضت. شكى له حالته. قال

إن الحكاية طالت. والصبر نفذ، رفع أمين الشونة يده. في المسافة بينهما، قال إن عنده خبرا. لم يكن يحب أن يقوله له. ولكن ما دام هو الذي فتح الموضوع. سيقول:

ــ الإدارة سترسل أوناشًا للتحميل الآلي السريع.

أوناش؟

تساءل الشيال ببطء. وسار خلف أمين الشونة.

الهموم في الأعالي

نسى الناس في الناحية كلها. كلمة القيالة أو وقت الظهر أصبحوا يسمونه ساعة الموكب. والذين يجدون صعوبة في نطق كلمة موكب. يقولون: " حصة الزفة " والموكب له مواعيد ثابتة. وعند مروره في المسافة من الشونة إلى البلد. يعرف الكل أن وقت الراحة قد جاء أخيرا، من بعيد يبدو الموكب هكذا: غلام الطيور في المقدمة يسحب جديا وخروفا. وعنزة صغيرة تملكها بنات أمين الشونة يحضرهم معه. ليأكلوا ما يقع من المحاصيل على أرض الشونة أثناء الوزن والتعبئة والتفريغ. إنها محاولة للحفاظ

على نظافة الشونة. والأمين يقوم بهذا العمل. متطوعا لحبه في النظافة.

ـــ هي أولى من العصافير.

يفسر أمين الشونة الأمر فهم ليسوا أعداء مصر مثل العصافير بلى غلام الطيور وعنزاته الشيال. الجوال الذي يحمله لا يتغير. محتوياته تتغير من يوم لآخر. يحاول الناس معرفة محتويات الجوال عن طريق شكله الخارجي ومشية الشيال. لم يفلح أحد في معرفة ما يحتويه الجوال من الشيال. رفض الحديث:

ـــ أنما ما زلت زهورات:

ظلت الناس تخمن مرة في الجوال كسب أو رز أو كيماوي. كلها من المحاصيل المخزونة في الشونة. على جانب الموكب الخفير النهاري للشونة. ليس معه سلاح. بيده عصا. يتولى نيابة عن أمين الشونة إلقاء السلام والرد على تحيات الفلاحين. يوفر على الأمين مشقة القيام بهذا العمل بجوار الخفير ساعي مكتب الأمين. يحمل الدفاتر والأوراق والأقلام ودواية الحبر. أمين الشونة دقيق يقدس عمله لا تعرف الراحة إلى نفسه سبيلاً إن ترك الدفاتر في أي مكان.

انقسم الناس في الناحية إلى فريقين بخصوص موضوع الدفاتر حسنو النية قالوا إنه يأخذها إلى منزله ليكمل عمله هناك. وهو لا يقوم بالعمل في الشونة. ترفع ما عن صرف مرتب إضافي تمشيا مع سياسة التقشف ووقوفا بجانب البلد الفريق الآخر يؤكد أن الأمين يأخذ الدفاتر والكمبيالات والإيصالات إلى منزله، حتى تكون أمامه فرصة ليفعل فيها ما يريد أن يفعله بالدفاتر. يقسمون على المصحف الشريف

إن الدفاتر الأصلية هي التي توجد في منزله أما الدفاتر التي تروح وتجيء معه فهو يستعملها مع الناس فقط بجوار حامل الدفاتر مورد الأنفار الذين يعملون في الشونة. يسير الآن بصفته حامل هدايا أمين الشونة. يوميا توجد هدايا. أما أمين الشونة نفسه فهو يسير في آخر الموكب. يقول إنه يسير في آخر الكل تواضعا منه واحتراما لإنسانية البشر مهما كان العمل الذي يقومون به. لم يصدقه أحد. الكل يعرف أنه يفضل السير في آخر الموكب حتى يحرس ما يحمله الشيال وحامل الهدايا. الأمين غليظ سمين. وهو صاحب أضخم كرش في الناحية وأكثر النظارات سوادا. وأكبر كمية من العرق تسيل على كل مكان في جسمه صيفًا وشتاء. الموكب

يسير في الطريق محاط بالغيطان التي يعملون فيها فلاحون. أجساد نحيلة مسنودة على الفؤوس. لحظة مروره يتوقفون عن العمل. يحسدونه. ينظرون إليه على أنه أسعد إنسان في بر مصر وأنه أكبر موظف يسكن بينهم ويشاهدونه كل يوم. لا يضايق الأمين سوى هذا الحسد. لا أحد يعرف أن الأمين له همومه التي لا تبدأ إلا بعد عودته إلى البيت. وتناول الغذاء ونوم القيالة بمجرد أن يبدأ عملية التسديد في الدفاتر. تزحف الهموم على جدران بيته الريفي، يكون جسمه البرميل قد استراح في جلباب بيتي واسع ها هي رحلة كل يوم في الدفاتر والأوراق والسجلات. الكميات التي تحضر من المخازن الرئيسية ناقصة. لا يمكن الاعتراض. في أول أيامه اعترض وصلته التهديدات الخفية.

ـــ نحن الحكومة. شعارنا في كل العصور.

في صوت واحد هتفوا له:

ـ انصرف..

وحذروه:

ـــ من اعترض انطرد.

كان من الصعب عليه أن يتصرف بمفرده. اشترك معه آخرون. ومن حضر القسمة فليقتسم. اتسعت العملية، فاحت الرائحة. نظرا لكثرة العدد اضطر لإنشاء سجل لكل الذين يحصلون على نصيبهم من العملية. قسمهم إلى مجموعات الفئة " م " المشاركون من الدرجة الأولى الفئة " ب " المشاركون بصورة غير مباشرة. الفئة " ج " الذين يسهلون المسائل من بعيد الفئة " ز " المشاركون بالصمت. يعرفون بالحكاية ومعهم وثائق وأدلة ويملكون القدرة على إثارة المتاعب. في البند الخاص بتوزيع الحصيلة يختلف الأمر. البعض يحصل على حقه نقدا والآخرون يأخذون بضائع عينية من الشونة. المجموعة الثالثة والأخيرة تأخذ حقها على شكل امتيازات خاصة في الشونة. هكذا يبدو الكل سعيدا. إلا هو تقع المسئولية عليه وحده. إن انكشف الأمر لم يحاكم أحد. سواء في اللحظة التي يبدأ فيها عمله في الدفاتر المختلفة. يشعر بالخطر. يدب في جسمه الخوف. تتسلل رعشة إلى قلبه. المخالفات كثيرة.. وكلما ازدادت شعر بالوحدة الثلجية، لم يجد من يحدثه عن همومه. فكر في أن يحكي لزوجته أيقظها من نومها السعيد. عاتبته لأنه أيقظها

من سابع نومة. لكي يكلمها في أمر بسيط. قالت وهي تعود للنوم:

ــ ربنا يستر.

اكتشفت يقظته الحارقة. هدأته بقولها:

ــ معك كبار، لن يمسك سوء مراعاة لهم.

لم يقتنع بما قالته زوجته أثار قلقه. أصغر اللصوص تتم التضحية به. إن انكشف الأمر قالت وهي تنام من جديد:

ــ أنا موافقة على أن ذلك خطأ. ولكن هل يكفي مرتبك؟

ذلك هو مربط الحصان كما يقولون في الحكايات الشعبية. المرتب لا يتعدى الثلاثين جنيها. وهو لا يكفي. مطلوب منه أن يرسل ثلثه إلى أهله، الفلاحون الفقراء الذين يعيشون في قرية بعيدة ويصرخون من ظلم أمين شونة مثله. ينتهي الحديث إلى صمت. بعده يجيء النوم. خلاله يحلم بالتحقيق والسجن وزوجته البضة السمينة تتأوه وتئن تحت أحد رؤسائه الذين أدخلوه السجن يفزع. يقوم من نومته، لا يستطيع النوم حتى الصباح. يجلس في شرفة منزله الريفي الهادئ والذي بناه من دخله. يأتي الصباح. ويكون الصداع

قد هد عظام رأسه وأكل نور عينيه، يتناول إفطاره يحضر إليه الخفير والشيال وحامل السجلات وحامل الهدايا. تخرج الأغنام من الحظيرة الصغيرة الملحقة بحديقة المنزل. يبدأ الموكب سيره. يكون ساهما يريد أن يصل إلى قرار ما ينفذه على الفور. يسلم نفسه لمدير الأفكار بداخله، يكتشف أن أوان التراجع فات. الاستمرار أسهل من التوقف. هو يسرق لحساب الآخرين ويأخذ نصيبه. إن رفض ما يأخذه لنفسه لابد وأن يستمر في السرقة لحساب الكبار وإن لم يستمر سينقل. سيجدون مليون شخص يقومون بالعمل بدلاً منه وفي مكانه الذي سينقل إليه سيسرق لحسابه. أو لجيوب رؤسائه ليس هذا مهما. المهم. يقول لنفسه ببطء:

ـــ الكل يسرق من الكل.

ينبعث من داخله تصميم طارئ على الاستمرار، في المسافة الباقية حتى الشونة. يفكر في ابتكار وسائل جديدة للسرقة. لم يعرفها أحد من قبل. تثير دهشة الفلاحين المساكين الذي سعدوا به يوم حضوره. وقالوا إن أمنيتهم من يوم أن بنيت الشونة. أن يعين للعمل بها فلاح منهم حتى يشعر بآلامهم. يومها عاهدهم أن يكون ذراعهم الأيمن وقلبهم

للشونة باب من عيدان الخشب والعصا يذكره بحديد نوافذ السجن الصغيرة، يراه يكبس عليه هم النهار بعد هموم الليالي. يحاول أن يكون سعيدا يقول لنفسه:

ـــ عندما تقع الفأس في الرأس.

يفرجها من لا يغفل ولا ينام.

ويبدأ عمله اليومي.